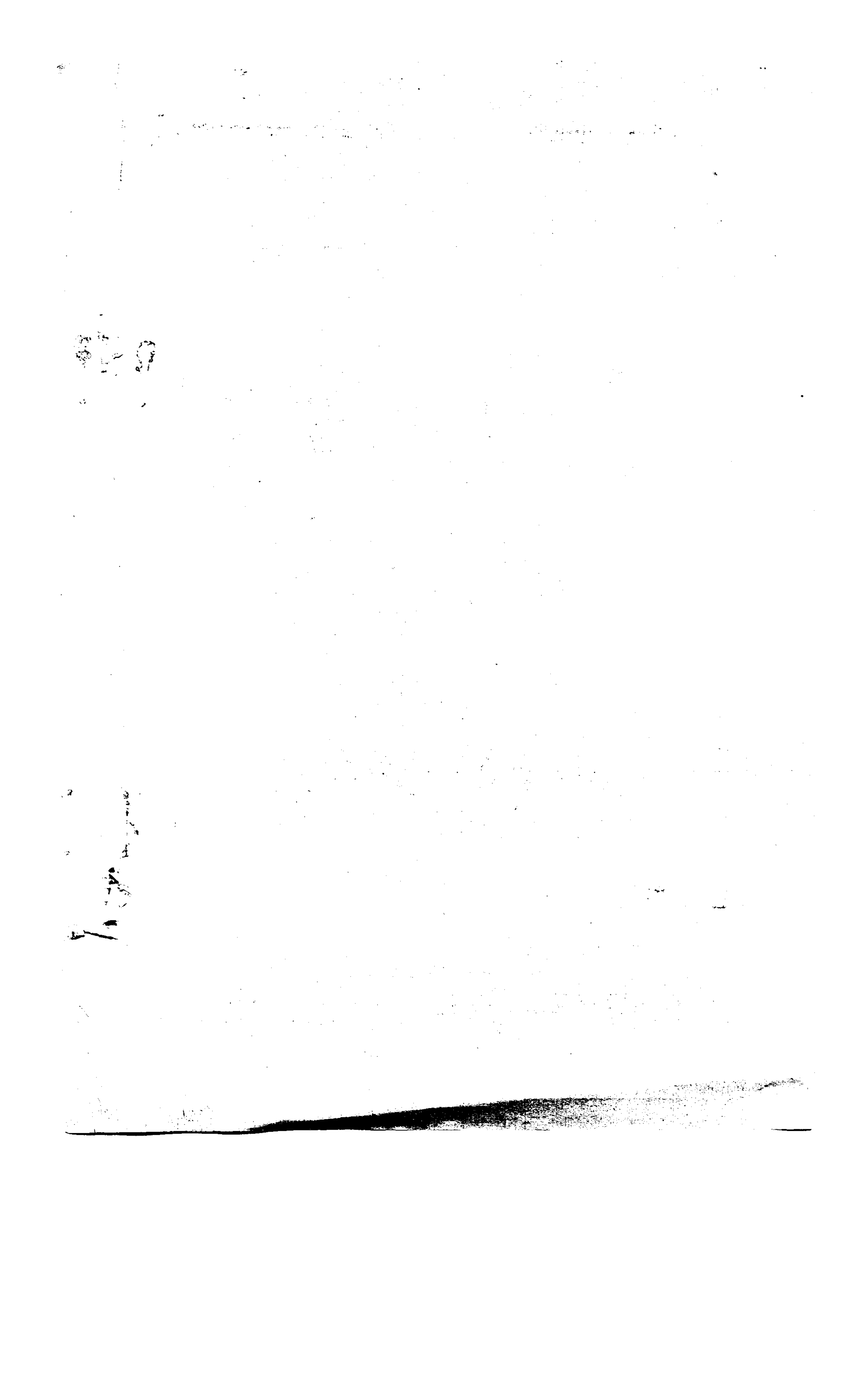
جامعة الأزهر
كلية أصول الدين - القاهرة

منهج القرآن والسنة في الدعوة إلى الله تعالى

تأليف
الدكتور محمود يوسف الشريف
الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

الدار المصرية للطباعة والنشر بالسيدة زينب - القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعـــد :

فلقد كان من فضل الله ـ سبحانه على البشر أن جعل التدين فيهم شوقاً غريزياً إلى الأزلى الأبدى ، وعنصراً ضرورياً لتكميل القوة النظرية فيهم ، وفوق ذلك فهو عنصر ضرورى لتكميل قوة الوجدان، إذ العواطف النبيلة كالحب والشوق والشكر والحياء والأمل إذا لم تجـــد ضالتها المنشودة فى الأشياء ، أو مع الناس وجدت فى رحاب الدين مجالا طيباً لا تدرك غايته، ومنهلا عذباً لا ينفد معينه .

والدين الحقيقى الذى يحتل هذه المكانة فى نفوس البشر ليس مبعثه الخوف من القوى الطبيعية كالكواكب والأفلاك والنجوم ، ولا اعتقاد حلول

الأرواح ، ولا الإحساس بروعة المجهول ، ولا الشعور بالضعف وبالحاجة إلى ظهير ، ولكن مبعثه الوحى الإلهى الذى جاء إلى الإنسان منذ وجوده ، فوافق ميوله النفسية ، فقبله ، وآمن به .

ولقد اصطفى الله — سبحانه — من بين عباده أشخاصاً صنعهم على عينه ، ومنحهم الصفات التى تؤهلهم لتحمل رسالته إلى خلقه بصدق وأمانة وحسن تبليغ وفطانة ، ثم كلفهم سبحانه بتحمل الرسالة ، وتبليغها إلى عباده بلا تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان .

والرسالات السماوية تتفق فى دعوة الناس جميعاً إلى توحيد الله — عز وجل — ، وإخلاص العبادة ، والخضوع المطلق له سبحانه والإيمان بالرسل من غير تفريق بين رسول وآخر ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء على الأعمال ، والترغيب فى طاعة الله — عز وجل — ، والترهيب من مخالفته وعصيانه .

كما تتفق رسالات السماء فى أن المبلغين لها كانوا يعالجون الأمراض الإجتماعية المتفشية فى أممهم : فنرى نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم — عليهم السلام — يهتمون كثيراً بنشر التوحيد والقضاء على الوثنية التى توارثها أقوامهم عن أجدادهم ، وأصبحت ذات أثر بالغ على عقولهم وأفهامهم، ونرى لوطاً — عليه السلام — جعل همه فى القضاء على الفاحشة التى كانت منتشرة بين قومه ونرى شعيباً — عليه السلام — بعد دعوة قومه إلى توحيد الله — عز وجل — ينهاهم عن تطفيف الكيل والميزان ، ويأمرهم بإيفائهما نظراً لإنتشار الغش بينهم ونرى موسى — عليه السلام — يعمل على إنجاء قومه من فرعون وآله الطغاة الظالمين ، ونرى عيسى — عليه السلام — يأتى داعياً قومه إلى

التمسك بتوراة موسى -عليه السلام- ،وإحياء ما أماته اليهود منها، ثم البشارة بمجيء رسول بعده من عند الله ـ سبحانه ـ وفوق ذلك فقد جاء بمجموعة من الحكم الغالية، والأخلاق الفاضلة كالحث على إكرام الجار، وعلى السلام والعفاف واللطف والصلاح والإيمان . . . إلخ ، ثم جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن المصدق لما بين يديه من الكتب، والمهيمن عليها، وبالرسالة التى عم خيرها ونورها البشرية كلها قال تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ؟

المبحث الأول

معالم التوحيد فى رسالات السماء

الإيمان بالله بارىء الكون وحده لاشريك له هو أصل الأصول فى الأديان السماوية ، بل هو الأساس الذى خلق الإنسان من أجله على الأرض وسخر له كل ماعليها ، والقرآن الكريم يوضح ذلك فى كثير من آياته منها قوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » (١)..

ومنها قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»(٢).

ففى الآية الأولى يعرض القرآن الكريم حقيقة الباعث على التدين فى نفس الإنسان ، فقد استخرج الله من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم التى سوف توجد جيلا بعد جيل فى قرن بعد قرن وسألهم ألست بربكم ؟ فأجابوا جميعاً بلى شهدنا ، وبهذه الشهادة سقطت تعلتهم يوم القيامة بأن يقولوا :

(١) إنا كنا عن التوحيد غافلين .

---

(١) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) أو يقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وإنا على آثارهم مقتدون .

وفى صحيح الإمام مسلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : يقول الله ـ عز وجل ـ إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم (١) .

فوضح أن التدين مرتبط بعليته الأساسية المركوزة فى فطرة الإنسان وهى الميثاق الأول الذى أخذه الله ـ سبحانه ـ على البشر عامة يوم هم فى عالم الذر ، ولهذا قال الإمام ابن كثير : ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد هو فطرهم على التوحيد (٢) .

وهو الذى تدعو إليه آية سورة الروم « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .. » .

ومنذ أقدم العصور والناس يجدون فى أنفسهم إلهاماً فطرياً إلى التسليم بوجود قوة قاهرة يستلهمونها ويستمدون منها العون ، ويستقبلون منها الخير والشر ، ويدعونها خوفاً وطمعاً ويتقربون إليها بالقرابين والعبادات ، هذه القوة غير المحدودة هى قوة الله ـ عز وجل ـ فاطر السماوات والأرض وقاهرهما .

لهذا كانت وظيفة أنبياء الله ورسله هى إخراج الناس من هذه الحيرة بتعريفهم بالله ـ سبحانه ـ : وكيفية عبادته وتوحيده ، صور ذلك القرآن

---

(١) الحديث بتمامه فى صحيح الإمام مسلم ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٤ .

الكريم فى آيات عديدة منها قوله تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »(١) .

وقوله سبحانه : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »(٢) .

والمتأمل فى قصص الأنبياء والمرسلين يجد أن لكل رسول فى دعوته منهاجاً للهداية والإرشاد يبين للناس الطريق إلى توحيد الله — سبحانه — ، وإفراده بالعبادة ، من ذلك قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم »(٣) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »(٤) .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان » ٥ :

« إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء »(٦) .

وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله »(٧) .

« وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم »(٨) .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٢٥، ٢٦ من سورة هود .
(٤) الآية ٦١ من سورة هود .
(٥) الآية ٨٤ من سورة هود .
(٦) الآية ٣٧ ، ٣٨ من سورة هود .
(٧) الآية ٨٣ من سورة البقرة .
(٨) الآية ٧٢ من سورة المائدة .

مع أنبياء الله فى الدعوة إلى التوحيد

بهذه الوحدة لموضوع رسالات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يوجه القرآن الكريم إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - سؤالا فى سورة الزخرف : « وسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » (١) .

والجواب عن ذلك أن التوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول، والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة فى هذه الصورة الفريدة، صورة الرسول - عليه الصلاة والسلام - يسأل الرسل قبله عن هذه القضية ، وهى فريدة حقاً لأن هناك أبعاد الزمان والمكان بين رسولنا والرسل الكرام قبله، ولكن هذه الأبعاد تتلاشى أمام الحقيقة الثابتة المطردة حقيقة وحدة الرسالة المرتكزة كلها على التوحيد ، وهى كفيلة أن يتلاشى مع ثبوتها الزمان والمكان، وسائر الظواهر المتغيرة .

على أنه بالقياس إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وإخوانه من الرسل الكرام مع ربهم لايبقى شىء بعيد ، وآخر قريب ، فهناك دائماً تلك اللحظة اللدنية التى تزال فيها الحواجز ، وترتفع فيها السدود ، وتتجلى الحقيقة، وهى وحدة متصلة بعد أن سقط عنها حاجز الزمان والمكان والشكل والصورة ،

---

(١) من الآية ٤٥ من سورة الزخرف

وعندئذ يسأل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إخوانه الأنبياء « أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » .

وآية سورة الشورى تجمع وحدة الموضوع مرة واحدة بما تضفيه من المساواة على وحى الله لصفوة أولى العزم من الرسل قال تعالى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »(١) .

والمتتبع لحديث القرآن الكريم عن الأنبياء والرسل الذين عاشوا فى حياة البشرية يجد أن الأساليب التى كانوا يتبعونها فى دعوتهم إلى الله تلتقى كثيراً مع الخط العام للأسلوب الإسلامى فى الدعوة فنجد اللين والتسامح والرفق والرحمة ، ونلتقى بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن فى أكثر من موقف ، وفى أكثر من آية ، وليس ذلك غريباً بعد أن كان الإله واحداً ، والدين واحد ، والرسل يعيشون وحدة الأهداف والوسائل ، كما أن الإنسان هو الإنسان فى كل زمان فى نوازعه وميوله ، فى مشاعره وأحاسيسه فلن يختلف الخط العام للأسلوب الحكيم الذى ينفـــذ إلى تلك المشاعر والأحاسيس ، وإنما الذى يختلف هو الكيفية والشكل تبعاً للتطور الفكرى والعقلى والإجتماعى حسب التطور الزمنى .

وليس فى الوسع أن نستعرض كل موقف من هذه المواقف التى واجهها الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أثناء تبليغهم الدعوة إلى أقوامهم ، وإنما سنختار بعض النماذج التى توضح هذه الحقيقة .

---

(١) الآية ١٤ من سورة الشورى .

مع نوح - عليه السلام -

يحدثنا القرآن الكريم عن موقف نوح - عليه السلام - مع قومه ، وعن أسلوبه الوديع المتسامح الذى يصور لهم طبيعة مهمته ، ونوعية رسالته التى تقوم على الهدى والعدل .

قال تعالى : « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ، قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون »(١) .

فقد كان أول شىء بدأ به نوح قومه أن دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وأرفق بهذه الدعوة التخويف من عذاب الله وبطشه فقال بلسان الخائف المشفق «إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » وهو يوم القيامة، أو اليوم الذى ينزل عليهم فيه عذاب العصيان والمخالفة فى الدنيا وهو الطوفان .

---

(١) الآية ٥٩ — ٦٣ من سورة الأعراف .

حالة المجتمع الذى بعث فيه نوح - عليه السلام - حضارياً ودينياً

من آيات القرآن الكريم الواردة فى شأن نوح - عليه السلام - وقومه يتبين لنا مدى ماوصل إليه هؤلاء القوم من حضارة فائقة ، وتقدم هائل فى العلوم والصناعات ، والتفنن فى أساليب الجدل والمحاورة يتجلى ذلك فيما يأتى :

(١) أن هؤلاء القوم كانوا يعرفون الزراعة ، وكانت تمثل دخلا رئيسياً عندهم ، ولذلك حركوا على الإيمان بالله وحده بأن نتيجة هذا الإيمان ستكون زيادة النماء والخير ، قال تعالى على لسان نوح - عليه السلام - « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين . ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » (١) .

يقول المفسرون : إن قوم نوح كانوا يحبون الأموال والأولاد فحركوا بهذا على الإيمان ، وقيل لما كذبوه بعد تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين ، فوعدهم عليه السلام أنهم إن آمنوا بما جاء به أن يرزقهم الله الخصب ، ويرفع عنهم ماهم فيه .

وليس من المعقول أن يخاطب نوح قومه بهذا الأسلوب ، وهذا المنطق

---

(١) الآية ١٠ ، ١١ ، ١٢ من سورة نوح .

وهم قوم غفل عن فهم هذه الحقائق . بل كانت لهم حدائق غن ، وأنهار يروون منها زروعهم وثمارهم ، وهذا منتهى المدنية والتقدم .

(٢) برعوا فى الصناعة وتقدموا فيها حتى لان لهم الصخر ، وطاوعتهم المواد التى صنعوا منها التماثيل التى اتخذوها آلهة من دون الله ، يتبين ذلك من قوله تعالى : « وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً » وكانت هذه أكبر آلهتهم وأعظمها عندهم ، فخصوها بعد العموم لوجود آلهة وأصنام أخرى عندهم لاتحصى مما يدل على تقدمهم فى صناعة التماثيل التى اتخذوها آلهة معبودة ومقدسة(١) .

(٣) عرف قوم نوح النقود، وكانت ذات قيمة عندهم لاتقل عن قيمتها فى الوقت الحاضر ، ولذلك كان من بين وسائل إقناعهم بأنه رسول من عند الله أنه لايطلب منهم مالا على عمله الذى يقوم به « ياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله »(٢) .

فمن طبيعة الناس أنهم لايؤدون عملا بدون أجر ، فلو كان هذا العمل لمصلحته هو لطلب منهم أجراً عليه ، ويؤكد لهم نوح أنه لن يشذ عن طبيعة البشر فى أخذ الأجر على العمل ، ولكنه سيطلب الأجر ممن كلفه بالعمل كما يطلب أى أجير أجره من صاحب العمل وصاحب عمل نوح هو الله ـ سبحانه ـ فهذه الصورة ترينا أن هؤلاء القوم كانوا يعرفون المال ، ويتعاملون به مع وجود قيمته الغالية عندهم .

---

(١) تفسير النسفى ج ٤ ص ٢٩٥ .
(٢) الآية ٢٩ من سورة هود .

(٤) ومما يدل على رقى هؤلاء القوم مادياً أنهم كانوا يعرفون السادة والعبيد على خلاف المجتمعات البدائية فهى لاتعرف هذه التفرقة ، ولا هذا اللون من التكوين الإجتماعى ، وإنما يظهر عندما تتقدم الأمة «فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل»(١) .

فقد كانت حجتهم عليه أن أتباعه من أراذل البشر ، وأدناهم منزلة — فى نظرهم — ولو كانت دعوته حقة لكان أتباعه من أصحاب العقول الراجحة ، والثراء الواسع . والمكانة المرموقة ، ولكنه عليه السلام يعتذر لقومه بأنه لايستطيع أن يطرد المؤمنين لبساطة عقولهم ، أو دناءة مهنهم ، ويقول من الذى ينصره من عذاب الله إذا هو طردهم عن مجلسه ، وأبعدهم من عطفه . وما دام صاحب مبدأ وعقيدة فهو يرحب بكل من يعتنق هذه العقيدة أياً كانت مكانته فى المجتمع .

(٥) بمقدار التقدم الحضارى كان التخلف العقائدى حيث ورثوا الشرك والوثنية عن آبائهم وأجدادهم ، وظلوا متمسكين بهذه العقيدة الباطلة حتى بعد مجىء نوح — عليه السلام — إليهم داعياً وهادياً إلى التوحيد ، فقابله المستكبرون منهم مقابلة منكرة ، ورموه بأنه لا يريد بهذه الدعوة إلا أن يتفضل على الناس ويرأسهم ، لأنه بشر يماثل الناس وليست له مزية عليهم يكون بها رسولا ، وكان ردهم على نوح — عليه السلام — أن قالوا له «ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين» مع أن البشرية لاتنافى الرسالة ، ولا مانع

---

(١) الآية ٢٧ من سورة هود .

من أن يمن الله على بعض البشر ، فيختاره لذلك المنصب الجليل ، ويصطفيه للوحى ينزل عليه ويبلغه للناس « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (١) .

وقد قال بعض المفسرين : ما أعجب شأن أهل الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر ، ورضوا للألوهية بحجر .

(٦) كثرة الجدال والعناد لنوح — عليه السلام — تدل على أن القوم كانوا على درجة عالية من الجدل وإقامة الحجج على أن ما وجدوا عليه آباءهم هو الحق وما عداه هو الباطل ، وكأنهم يقولون لنوح : إنك مهما دعوتنا إلى اتباعك ، والإيمان بما جئت به ، فلن نؤمن لك أبداً ، وإن كنت تملك إنزال العذاب علينا فأت به إن كنت من الصادقين « قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » (٢) .

كما نرى أيضاً صور العناد والمكابرة فى قوله تعالى على لسان نوح — عليه السلام — « وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » (٣) .

أى سدوا مسامعهم مخافة أن يسمعوا كلامى ، وتغطوا بثيابهم لئلا

---

(١) الآية ١١ من سورة هود .
(٢) الآية ٣٢ من سورة هود .
(٣) الآية ٧ من سورة نوح .

يبصرونى كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم ، ويبين لهم طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وبلغ بهم التمسك بالعقيدة الباطلة أن الرجل كان يذهب بابنه إلى نوح - عليه السلام - ويقول : إحذر هذا فإن أبى قد وصانى به[١] .

---

(١) تفسير القمى جـ ٤ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

رسالة نوح ـ عليه السلام

تبين مما تقدم أن قوم نوح كانوا وثنيين ومعاندين، وأن الله أرسل إليهم نوحا مبشراً ونذيراً، لا يبتغي من وراء دعوته سوى إرضاء ربه، وإسعاد أمته، كما أنه أول رسول أرسل إلى قوم مشركين هم قومه بدليل ما جاء فى حديث الشفاعة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون: لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لست هناك، ويذكر ذنبه الذى أصابه فيستحى من ربه ـ عز وجل ـ، ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله إلى الأرض، فيأتون نوحا .. » الخ (1).

وأخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن قوم نوح هم الذين صوروا بعض الصالحين منهم، ثم وضعوا لهم الصور والتماثيل لإحياء ذكراهم، والإقتداء بهم، ثم عبدوا صورهم وتماثيلهم، فدعاهم نوح ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله وحده مع بيان أنه ليس لهم إله غيره يتوجهون إليه فى عبادتهم بدعاء يطلبون به مالا يقدرون عليه بكسبهم، وما جعله الله فى إستطاعتهم من الأسباب التى تنال بها المطالب. فإن مثل

---

(1) صحيح البخارى: كتاب التوحيد.

هذا هو الذى يتوجه به إلى الخالق ـ سبحانه ـ بالطلب والرجاء لأنه سبحانه هو الذى بيده ملكوت كل شيء ، وهذا الطلب هو مخ العبادة ولبابها ، فلا يحل للمؤمن أن يتوجه بالدعاء إلى غيره سبحانه البتة .

ثم خوفهم من عذاب الله إذاهم لم يمتثلوا أمره بقوله : : « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » إذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به . وهو يوم القيامة حيث يبعث الله العباد ويجازيهم على إيمانهم وعلى كفرهم، وقيل هو يوم الطوفان.

« قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين » الملأ أشرف القوم ، فإنهم يملئون العيون رواء بما يكون عادة من تأنقهم بالزى الممتاز ، وغير ذلك من الشمائل ، والذين إمتلأت نفوسهم بحب الجاه والسمعة ، قال هؤلاء لنوح : إنا لنراك فى ضلال عن الحق بين ظاهر بنهيك إيانا عن عبادة ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا الذين هم وسيلتنا وشفعاؤنا عند الله ، يقبلنا ببركتهم ، ويعطينا سؤالنا بواسطتهم لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى ، ونحن لا نرى أنفسنا أهلا لدعائه والتوجه إليه بما نقترفه من الذنوب التى تبعدنا عن هذا المقام الأقدس بغير شفيع ولا وسيط من أوليائه وأحبائه .

حكموا بضلاله عليه السلام ، وأكدوه بالتعبير بالرؤية القلبية وإن واللام وبالظرفية المفيدة للإحاطة ، كأنهم قالوا : إنا لنراك فى غمرة من الضلال محيطة بك لا نهدى معها إلى الصواب سبيلا ، وذلك لما رأوه عليه من الثقة بما يدعو إليه .

وسير الأنبياء والرسل تبين لنا أن هؤلاء المترفين كانوا عقبة فى طريق

الإصلاح . وهم الذين يحسدون كل داع إلى الخير ، ويقفون حجر عثرة فى سبيل دعوته ، وهم الذين قال الله فيهم « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » (١) » .

ألا ترى ذلك الملأ من الأشراف والسادة يقول لنبى الله هود عليه - « إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » (٢) .

وكذلك الملأ من قوم صالح يقول للمؤمنين منهم « أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون » (٣) .

ثم ما يحكيه الحق - جل شأنه - عن شعيب إذ يقول « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين » (٤) .

وكذلك الملأ من أشراف قريش اغتروا بالتنعم ، واتباع الشهوات ، وأصموا آذانهم عن سماع كلمة التوحيد ، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » (٥) .

---

(١) سبأ : ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) الأعراف : ٦٦ .
(٣) نفس السورة : ٧٥ ، ٧٦ .
(٤) نفس السورة : ٨٨ .
(٥) الزخرف : ٣٠ .

وليس هذا فحسب بل حكموا هواهم وشيطانهم ، فخرجوا بنتيجة هى أن النبوة لا ينبغى أن تكون إلا لواحد من الأغنياء المترفين ، وحكى القرآن ذلك عنهم فى قوله تعالى « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (١) .

أى رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » أى من أحدهما ، والقريتان هما مكة والطائف ، وعنوا بعظيم مكة الوليد بن المغيرة ، وبعظيم الطائف عروة بن مسعود الثقفى ، وأرادوا بالعظيم من كان ذا مال وجاه ، ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيما . (٢) .

تلك آثار الأشراف والسادة ، وهذه أعمالهم مع رسل الله وأئمة الإصلاح .

أما جمهرة الشعب الذين سلمت قلوبهم من الضغن ، وطهرت من الحقد فهم أتباع الرسل فى كل زمان ، وهم أنصار كل داع إلى الحق ، وحسبنا فى فهم هذه السنة أن نعرف أن هرقل وهو يسأل أبا سفيان عن محمد بن عبدالله قال له : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم ، فقال له هرقل : كذلك أتباع الرسل (٣) .

« قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

---

(١) نفس السورة : ٣١ .

(٢) تفسير النسفى عند تفسير هذه الآية .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الجهاد .

ناداهم باسم القومية مضافة إليه ثانية تذكيرا بأنه لا يريد لهم ولا بهم إلا الخير، ونفى أن يكون قد علق به أدنى شيء مما يسمى ضلالة، ثم قفى على نفى الضلالة عنه بإثبات مقابلها فى ضمن تبليغ دعوى الرسالة التى تقتضى أن يكون على الحق والهدى، فأخبرهم بأنه رسول من عند الله جاء ليهديهم سبيل الرشاد، ويدعوهم إلى ترك الشرك وما يلزمه من الخرافات والمعاصى المدنسة للأنفس والمفسدة للأرواح، وأن يتحولوا إلى التوحيد المطلق لله ـ سبحانه ـ ويتلوه الإيمان باليوم الآخر، وبالوحى والرسالة والملائكة والجنة والنار، ومنه الآداب والحكم والمواعظ، والأحكام العملية من عبادات ومعاملات، ولو آمنوا بالله وأطاعوه لكان فى ذلك مغفرة ذنوبهم، وسعادتهم فى الدنيا والآخرة.

وقد مكث نوح ـ عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما(١) مستخدما كل وسائل الدعوة من تبشير وإنذار، ووعد ووعيد وغير ذلك فتراه يتمنى لو أن قومه يعلمون سنن الله فى عقوبة الأمم والشعوب حينما تفسق عن دين الله، وتعصى أمره ونهيه، ويعدهم أنهم إن آمنوا بدعوته أن ينزل الله المطر عليهم، فينتفعوا به فى الشرب وسقى الزرع والحيوان، ويجعل لهم البساتين والأنهار العذبة «فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا»(٢).

---

(١) كما جاء فى سورة العنكبوت قوله تعالى «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما... » الآية.

(٢) نوح: ١٠، ١١، ١٢.

ثم يرجع إليهم نوح بعد ذلك الوعد ويقول لهم « مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » فهو يسألهم أى شيء يمنعهم أن يرجوا من الله تعظيما لهم فى دار الثواب ، وقد خلقهم على أطوار مختلفة ، وحالات متفاوتة ، فجعلهم من سلالة من طين ، ثم جعلهم نطفة فى قرار مكين ، ثم خلق النطفة علقة ، فخلق العلقة مضغة ، ثم جعل المضغه عظاما ، ثم كساها لحماً ، ثم أنشأها خلقاً آخر ، فشق لها أذنا تسمع ، وعينا تبصر ، ولساناً ينطق ، ورأساً تفكر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ثم قصد نوح — عليه السلام — إلى طريق آخر يرغب به إلى طاعة الله ، والوقوف عند حدوده ، فأخذ يذكرهم بآيات الله فى سمائه وأرضه ، وما جعل فيها من نور القمر وضوء الشمس ، وكيف أنبتنا الله من الأض نباتا ، ثم يعيدنا فيها ويخرجنا عند البعث إخراجا ، وكيف جعل لنا الأرض بساطاً ، ومهدها للزرع والمشى لنسلك منها السبل ، ونستخرج منها الزرع ، ونستخلص منها المعادن .

وهكذا نجده عليه السلام يلون لقومه الدعوة ، ويفاوت فى الأساليب ، فتارة يخوف وأخرى يبشر ، وتارة يشتد وأخرى يلين ، ومرة يعدهم بنعم الله وأخرى يذكرهم بآياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، فلم تنفعهم المواعظ ، ولم تفدهم الذكرى ، ومكروا بدعوته ، وأصروا على عصيانه ومخالفته ، ووصى بعضهم بعضا بالباطل « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا »(١) .

---

(١) نوح : ٢٣ .

وهذه أسماء لأصنام كانت تعبد لقوم نوح ، فنهاهم عن عبادتها ، وواصل الليل والنهار فى تنفيرهم منها ، وبعد الجهد الطويل ، ومئآت السنين التى أنفقها فى دعوتهم إلى عبادة الله وحده يوصى بعضهم بعضاً ألا يدعوا هذه الآلهة ، ولا يتركوا هذه الأصنام .

وقد روى المحدثون وعلماء الأثر أن هذه الآلهة كانت أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون إليها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وذهبت علامات تلك الصور عبدت(١) ، وقد أخذ نبي الله نوح يشكو من هذه الأصنام ، وإضلالها للناس ، أو من رؤوس الكفر الذين يتواصون بالباطل .

وبعد أن عيل صبره ، ونفدت جميع أساليبه فى الدعوة إلى الله أخذ يدعو عليهم قائلا « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » وعلل ذلك بقوله « إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » فإنهم أئمة الضلال ، ورؤوس الكفر ، وماداموا على هذا الحال فهم خطر على كل موحد ، وحجر عثرة فى سبيل الإصلاح ، لذلك دعا الله ألا يترك على وجه الأرض واحدا منهم ؛ لأنه إن تركهم أضلوا عباده ؛ وإن ولدوا نشئوا أولادهم على الشرك ، وربوهم على الكفر .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب التفسير .

عقوبة قوم نوح

بعد أن حقت كلمة العذاب على قوم نوح ، وقضى عليهم القضاء الحتم بالإغراق أمره الله بصناعة الفلك تحت رعايته ، وبواسطة إلهامه ، ونهاه ألا يخاطبه فى شأن من شئون الظالمين ، فلم يكن منه عليه السلام إلا الإمتثال لأوامر الله ، فأخذ فى صناعة السفينة « وكلما مر عليه ملأمن قومه سخروا منه ، فيقول لهم : « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم »(١) .

وهنا ينبغى أن نقف وقفة لها مغزاها عند قوله تعالى « عذاب يخزيه » لننبه إلى أن من العذاب ماهو مشرف لذات المعذب ، رافع له فوق إلهامات كالعذاب الذى يحل بالرسل عند قيامهم بواجبهم ، وعذاب المصلحين ، وأصحاب المبادىء الحقة عندما يدعون الناس إلى عقائدهم ، فأولئك عذابهم مر على الأجسام حلو على القلوب ، رافع لدرجاتهم ، وممحص لنفوسهم ، وكذلك عذاب المجاهدين فى سبيل الله ، والمقاتلين لإعلاء كلمته يتقدم إليه المؤمنون المخلصون لا لأنه حلو المذاق ، لذيذ الطعم ، بل لأن ورائه من من النعيم مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذلك هو العذاب العذب الذى يحمل صاحبه مثلا كاملا فى التضحية ونكران الذات .

---

(٢) هود : ٣٨ ، ٣٩ .

أما عذاب أعداء الحق ، وحزب الشيطان ، وأنصار الشهوة والهوى فذلك هو العذاب الذى يخزى صاحبه ، ويفضح من وقع به ، وهـذا هو عذاب أعداء الرسل وخصوم الحق ،

ويصنع نوح السفينة ، ويحمل فيها ما يحتاجه لحياته ولأهله الذين آمنوا معه ، ويحمل فيها أيضاً من كل زوجين إثنين ، إلى أن خرجت المياه من التنور وهو الفرن الذى يخبز فيه الطعام ، وينهمر الماء من السماء ، وتعلو الأمواج ، وتسير السفينة فى بحر لجى بـ ـها ومن فيها ، حيث أهلك الله الـكافرين المشركين ، وأنجى بفضله وعنايته الصالحين المؤمنين .

ما يستفيده الدعاة من قصة نوح ـ عليه السلام

فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ دروس كثيرة ينبغى على الدعاة إلى الله أن يتصفوا بها حتى تؤتى دعوتهم ثمارها المرجوة فى نفوس المدعوين ، ومن أهم هذه الدروس : الثبات ، والصبر والصدق .

فنراه عليه السلام يلبث و قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو ثابت على ما يدعوهم إليه من حق رغم ما يلقاه منهم من تكذيب وعناد كما بينا من قبل .

والواقع أن القائمين بكافة الدعوات الدنيوية إلى غير الله لا يتصورون أبداً بعقلياتهم ذات الحسابات المادية من الأرباح والخسائر أن إنسانا يصبر هذه القرون الطويلة على قوم هذا شأنهم يدعوهم ليلا ونهاراً ، فلا يزيدهم دعاؤه إلا فراراً ، فالعقلية المادية لا يمكن أن تتقبل مثل هذا الصبر الطويل، والثبات المتواصل لتكرار الدعوة على أسماعهم صباحا ومساء ، سراً وجهراً مع لفت أنظارهم من خلال ذلك كله إلى خلق السماوات والأرض ، ومابث فيها من أدلة قاطعة على وجوده سبحانه ، وإستحقاقه وحده للعبادة والطاعة، هذا كله مع أن الحق بالغ الوضوح فيما يدعو إليه ، فما هذه التماثيل التى صنعتها وصورتها أيدى البشر لتكون آلهة تعبد من دون الله ، وهى فى ذاتها صناعة بشرية تحاكى صنع الله فى بعض خلقه .

العقلية المادية بقياساتها الدنيوية لا تفهم صبر الداعية هذه القرون المتطاولة ، لكن الدعاة إلى الله يفهمونه ويقبلونه لأنهم يصدعون بما أمر الله

به من تبليغ لا يبتغون من ذلك سوى وجه الحق - سبحانه - ، وإرشاد الناس إلى طريق الخير ، وصبر الداعية هنا واجب ، لأنه يعلم أثر كيد الشيطان فى التلبيس على المدعوين ، وحكم سلطان العادة والوراثة عليهم.

أما نتيجة هذا الجهد المتواصل فى التبليغ فإن الداعية إلى دين الله لا يحسبه بالمقياس البشرى فى الربح والخسارة بالنظر إلى مقدار الجهد المبذول ، فذلك صنيع التجار لا صنع الدعاة إلى الحق ، ولو أن نوحا قاس الأمر بحسابات التجار الدنيوية لما لبث فيهم بهذا الدأب عشر مالبثه ، لكنه عليه السلام يتبع منطق الدعاة إلى الحق ، فيسقط عنده حساب ثمرة الجهد البشرى من حيث كثرة عدد الداخلين فى الدعوة ، لأن نفرا من الفقراء الذين يعتنقونها بحق يساوى كل ذلك الجهد المضنى ، أو ليست هداية واحد من البشر وإستنقاذه من النار خيراً من الدنيا وما فيها(١) .

أيضاً من الفروق بين دعوة الحق ، ومختلف التجارات الدنيوية أن الداعية إلى الله لا يطلب مقابلا ماديا لها إنما يؤديها لهم مجاناً ، وليس شيء من أمر الدنيا كذلك إذ لا يؤدى فيها أحد شيئا لآخر إلا وهو يتطلع إلى المقابل المادى ويطلبه ، أما الدعوة إلى الله فشعارها ما جاء فى قوله تعالى على لسان نوح « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله . . . » .

ومن العلامات الفارقة أيضاً بين الدعوة إلى الله ، وبين التجارات

---

(١) جاء فى صحيح البخارى كتاب الجهاد ، باب فضل من أسلم على يديه رجل قوله عليه الصلاة والسلام — من حديث طويل : فوالله لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

الدنيوية أن التاجر يزين بضاعته ، ويرجيها بكل سبيل يدفع الناس إليها ، وكثير من التجار يموهون على الناس أمر بضاعتهم بشيء من التزييف ، والإدعاء غير الصحيح ، أما دعوات الحق فهى دائماً فى طريق الصدق المنزه عن ملابسة الباطل بأى وجه من الوجوه ، ومن هنا نرى نوحا يقول لقومه « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين »(١) .

فهو بشر ورسول لا يشارك الله فيما هو من خلقه وأمره من ملكية الخزائن ، وعلم الغيب ، وغير ذلك مما لا يوصف ولا ينبغى إلا للخالق وحده ، ومن ثم حينما يقولون له « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » يضع الأمور فى نصابها الصحيح ناسباً كل ما هو من أمر الله إليه فيقول « إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين » ، ثم هو يعلم علم اليقين أن الهداية من شأن الله وحده ، لا يغنى عنها ، أو يؤدى إليها الجهد البشرى — مهما عظم — إلا بإذن الله ، فالنبى عليه التبليغ والإجتهاد فى ذلك قدر الطاقة ، ولله أمر الهداية والحساب من قبل ومن بعد ، ولهذا قال نوح لقومه فى آخر جدالهم له « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون »(٢) .

---

(١) هود : ٣١ .
(٢) هود : ٣٤ .

لا شك أن إدراك الدعاة لهذه الحقائق ييسر على نفوسهم ما قــد يجدونه من تكذيب ومعاندة فى الحق الواضح لمن دعى إليه ، ويجعلهم يتحملون الصعاب فى سبيل تبليغها إلى الناس راجين من الله — سبحانه — التوفيق فى الدنيا ، والأجر والمثوبة فى الآخرة .

إبراهيم عليه السلام

نبذة موجزة عن حياته :

نشأ إبراهيم عليه السلام فى بلاد العراق بين قوم يعبدون الأصنام من دون الله ، وأصح نسبة ينسب إليها هى العربية ، فلا يقال عنه : إنه إسرائيلى لأن يعقوب هو أول من تسمى بإسرائيل ، ويعقوب حفيد إبراهيم .

ولا يقال عنه : إنه يهودى ، لأن اليهودى ينسب إلى يهودا رابع أبناء يعقوب ، ولم يكن ينسب إليه إلا بعد أن أصبح اسمه علما على الإقليم الذى قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب .

ولا يقال عنه : إنه عبرى ، إذ كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف ، وإبراهيم عليه السلام ـ كان يتكلم لغة يفهمها جميع السكان فى بقاع النهرين وكنعان ، ولم تكن العربية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية فى تلك الأيام .

وقد يقال عنه : إنه سامى ، ينتمى إلى سام بن نوح ، ولكنها نسبة إلى جد وليست نسبه إلى قوم .

وأصح التقديرات أنه عليه السلام نشأ فى أسرة [illegible] مهاجرة من شمال اليمن إلى جنوب العراق ، وكانت هذه الأسرة مع الذين جاءوا من (أرض البحر) كما كان البابليون يسمون العرب المقيمين على مقربة من خليج فارس .

وقد نشأ عليه السلام على مفترق طريق بين جميع العهود ، بين عهد الكنانة وعهد النبوة ، بين إباحة القرابين البشرية وتحريمها ، بين التعديد والتوحيد .

ولما كانت الوثنية متفشية فى عهده ، فإن اهتمامه بالتوحيد كان هو العنصر الغالب فى دعوته حتى ليخيل لمن يقرأ قصته فى القرآن الكريم أنه لم يبعث إلا بالتوحيد ، ولذلك أشتهر بأنه شيخ الموحدين .

رسالة إبراهيم عليه السلام

يمكن تقسيم عهد إبراهيم – عليه السلام – إلى مرحلتين تكمل إحداهما الأخرى وهما : مرحلة الإعداد لتحمّل الرسالة ، ثم مرحلة تبليغ الرسالة :

أولا : مرحلة الإعداد .

يقول الله تعالى « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين » (١) فى هذه الآية يبين الحق – سبحانه – أنه اختبر إبراهيم – عليه السلام – بتكاليف فقام بها على أكمل وجه ، ولكن القرآن الكريم لم يبين لنا هذه الكلمات ، ولا عددها ، لأن العرب تفهم المراد بهذا الإبهام والإجمال ، ولأن المقام مقام إثبات أن الله – تعالى – عامل إبراهيم معاملة المبتلى أى المختبر له لتظهر حقيقة حاله ، ويترتب عليها ما هو أثر لها ، فظهر بهذا الإبتلا فضله بإتمامه ما كلف به .

ولكن علماء التفسير ذهبوا فى تفسير هذه الكلمات مذاهب شتى ، فمن قائل : إنها مناسك الحج ، ومن قائل: إنها خصال الإيمان ، واستخرجوها من آيات القرآن الكريم ، ومنهم من قال : إن الإشارة بالكلمات إلى الكوكب والقمر والشمس التى رآهم واستدل بأفولهم على وحدانية الله – تعالى .

---

(١) البقرة : ١٢٤ .

ومنهم من ذهب إلى أن المراد بها جعل الله إياه إماما ، وتكليفه بإقامة البيت وتطهيره، وأن بقية الآية مفسر للإبهام فيها ، وادعى بعضهم أن المراد أمره فى المنام بذبح ولده ، وقال آخرون : إن الكلمات هى الخصال العشر ، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد فى الرأس قص الشارب والمضمضة والإستنشاق والسواك وفرق الرأس ، وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء (١) .

وحسبنا أن نعرف أنها تكاليف اختبر الله بها نبيا من أنبيائه ، فأداها كاملة غير منقوصة ، ومن فوائد هذا الإبتلاء تعريف إبراهيم عليه السلام بنفسه وأنه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه إليه ، ولذلك كانت هذه الكلمات التى اختبر بها كالتمهيد لجعله إماما للناس ،ولهذا قال سبحانه عقبها : « قال إنى جاعلك للناس إماما » ولم يقل : فقال إنى جاعلك ليدل لنا على أن هذه الإمامة بمحض فضل الله واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات ، فإن الإمامة هنا هى الرسالة ، وهى لا تنال بكسب الكاسب، فالمراد أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ جدير بهذا المنصب الجليل وهو إمامة الناس ، والحق ـ سبحانه ـ حمل الرسالة شخصا هو أهل لها .

ولعلنا نلمح من ذلك أن منزلة الرجل من ربه تكون بمقدار قيامه بما أوجبه الله عليه ، وعنايته بالتكاليف ، والناس متفاوتون فى آداء هذه التكاليف ، يبين ذلك قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين

---

(١) أنظر ذلك مفصلا فى تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية .

اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير » (١) .

وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص ، وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم ، فقام يدعو إلى الايمان بوحدانية الله ، والبراءة من الشرك ، وإثبات الرسالة ، وتسلسل ذلك فى ذريته خاصة فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولهذا وصف الله الاسلام بأنه ملة إبراهيم فى قوله سبحانه : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (١) .

ماذا قال إبراهيم لما بشر بجعله إماما للناس « قال ومن ذريتى » أى واجعل من ذريتى إماما للناس ، وهو إيجاز فى الحكاية عنه لا يعهد مثله إلا فى القرآن ، وقد جرى إبراهيم عليه السلام على سنة الفطرة فى دعائه هذا ، فإن الانسان لما يعلم أن بقاء ولده بقاء له يحب أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها ليكون له حظ من البقاء جسداً وروحاً ، ومن دعاء إبراهيم الذى حكاه الله فى المسماة باسمه « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى » .

وقد راعى عليه السلام الأدب فى طلبه ، فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل لبعضها لأنه الممكن ، كما أن فى هذا مراعاة لسنن الفطرة ، وذلك من شروط الدعاء وآدابه . كما أن من شروطه أكل الحلال ، وأن يدعو العبد

---

(١) النحل : ١٢٣ .

وهو موقن بالاجابة ، وألا يكون قلبه غافلا عن ذكر الله ، وألا يدعو بما هو إثم ، أو مخالفة لسنن الفطرة ، لأن من خالف سنن الله فى خليقته أو شريعته فهو غير جدير بالإجابة ، بل هو سيء الأدب مع ربه حيث يدعوه لأن يبطل لأجله سنته التى لا تتبدل ولا تتحول ، أو ينسخ شريعته بعد ختم النبوة وإكمال الدين.

وقد أجاب الله نبيه إبراهيم بقوله : «قال لا ينال عهدى الظالمين» أى أنى سأعطيك ما طلبت ، وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولكن عهدى بالإمامة لا ينال الظالمين لأنهم ليسوا أهلا لأن يقتدى بهم ، ففى العبارة من الايجاز ما يناسب ما قبلها ، وإنما اكتفى فى الجواب بذكر المانع من منصب الامامة مطلقا وهو الظلم لتنفير ذرية إبراهيم من الظلم ، وتبغيضه إليهم ليتحاشوه ، وينشئوا أولادهم على كراهته ، ويربوهم على التباعد عنه لكيلا يقعوا فيه ، فيحرموا من المنصب العظيم الذى هو أعلى المناصب وأشرفها .

وقد ذكر القرآن الكريم فوق ما تقدم صفات عديدة أهلت إبراهيم - عليه السلام لأن ينال هذه المكانة العظمى ، وذلك فى قوله تعالى «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين» (١)

ففى هذه الآيات من المعانى السامية ، والصفات العالية التى وصف بها نبى من الأنبياء ما يستحق الوقوف أمام كل صفة على حدة :

---

(١) نحل : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

الأولى : أنه أمة ، فهو أمة فى الدعوة إلى الله ، وفى قوة التحمل ، والصبر على أذى قومه ، وفى لين الجانب وجمال الأسلوب ، فى الثبات على الحق ، وفى التأفف من الباطل والاشمئزاز منه ، وحضور البديهة وسرعة الخاطر ، وفى التواضع والخشية من الله ـ تعالى ـ وما إلى ذلك من صفات الكمال .

وليس على الله بمستبعد أن يجمع العالم فى واحد

الثانية : أنه قانت لله أى قائم بأمر الله خاضع له .

الثالثة : حنيف ، وهو المائل لملة الإسلام ميلا لا يزول عنه .

الرابعة : ولم يك من المشركين ، وفى هذا رد على اليهود الذين ادعوا أنهم على ملة إبراهيم ، وكذلك النصارى ، وأخذ كل فريق يضمه إليه على ما هم عليه من الشرك ، روى ابن إسحاق بسنده إلى عبد الله بن عباس قال : إجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله ـ تعالى ـ «يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (١) .

---

(١) آل عمران : ٦٥ و ٦٦ ، ٦٧ ، وانظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٢ .

الخامسة : شاكر لأنعم الله عليه ، وهى كلمة جامعة لأنواع الشكر الذى يقابله الكفر ، ومن الغض من شكر إبراهيم لربه أن يفسره بعض العلماء بأنه كان لا يتغذ إلا ومعه ضيف إلا أن يكون ذكر ذلك على سبيل المثال ؛ وإلا فالشكر لأنعم الله ـ تعالى ـ أعم من شكره على نعمة المال والولد والصحة وغير ذلك من أنواع النعم التى لا يحصيها العد .

السادسة : إجتباه وهداه إلى صراط مستقيم .

الإجتباء هو أن تأخذ الشيء جميعه من قولهم جبيت الماء فى الحوض أى جمعته ، فالإجتباء هو الجمع على طريق الإصطفاء ، وكأن الحق سبحانه يلفتنا إلى أنه ضمه إليه ليصطفيه لذلك المنصب الجليل وهو منصب النبوة ، فهداه إلى صراط مستقيم فى الدعوة إليه سبحانه ، والترغيب فى الدين الحق، والتنفير من الباطل .

السابعة : وآتيناه فى الدنيا حسنة . قيل هى إقرار أهل الأديان به ، وقيل هى قول المصلى فى تشهده « كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » وقيل هى الذكرى الطيبة تحقيقا لطلبه حين قال :

« واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » ، وقيل هى الصدق والوفاء والعبادة ، ويصح أن يراد بالحسنة كل ذلك .

الثامنة : وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إستجابة لطلبه من ربه حين قال « رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين » .

وقد خص الله نبيه إبراهيم بذلك كله لأنه رئيس الموحدين وقدوة

العباد والناسكين حتى إن المشركين على إختلاف نحلهم كانوا مفتخرين به ، معترفين بحسن أسلوبه ، مقرين بوجوب الإقتداء به ، وآية ذلك أن اليهود أدعوا أنهم على ملته ، والنصارى يقولون إنهم على طريقته .

والمقصود من الظلم فى قوله سبحانه « لا ينال عهدى الظالمين » أى أشد أنواعه قبحا وضرراً وهو الشرك والكفر ، ومنه قوله تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » ، وقوله سبحانه « والكافرون هم الظالمون » ، ولكن ليس هذا دليلا على الحصر أو القصر بل هو أعم من ذلك وأشمل ، فإذا أطلقت كلمة الظلم فإنها تعنى مجاوزة الحق قل ذلك التجاوز أو كثر .

وقال بعض الحكماء : الظلم ثلاثة أقسام :

الأول : ظلم بين الإنسان وبين ربه ، وأعظمه الكفر والشر والنفاق قال تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » .

الثانى : ظلم بين العبد وبين الناس ، وقد جاء فى قوله تعالى « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس . . . » الآية .

الثالث : ظلم بين العبد وبين نفسه ، وإياه قصد بقوله « فمنهم ظالم لنفسه » .

قال الراغب : وكل هذه الثلاثة فى الحقيقة ظلم للنفس ، فإن الإنسان أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه .

وليس أدل على التخويف من الظلم وإبعاد الناس عنه من أن الحق سبحانه حرمه على نفسه ، ونهى الناس عنه فى الحديث القدسى الذى رواه

أبو ذر الغفارى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — فيما يرويه عن ربه أنه قال: « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . . . » الحديث(١) .

فتحريمه سبحانه الظلم على نفسه تقدسه عنه وإستحالته عليه ، لأن الظلم - كما قلت - مجاوزة الحق ، والتصرف فيما لا يملك ، والوجود كله منه وإليه سبحانه إيجاداً وبقاء .

وقد بسط القرآن والسنة القول فى تحريم الظلم نظرا لوجوده فى طباع كثير من الناس ، فهم فى حاجة إلى ما يحجزهم عنه ، ويبين لهم شروره وعواقبه ، كما أنه ذو أثر سيء فى الأفراد والجماعات ، إذ به تضطرب أمورها ، ويختل نظامها ، وتنبعث الإحن فى نفوسها ، وتتخاصم وتتدافع ، وتفقد أمنها وإستقرارها .

وأخيراً فالظلم من الكلمات العامة الجامعة كالبر ، وهو كما قيل : تجاوز الحد ، فمغتصب أموال الناس وحقوقهم ظالم ، والباغى المؤذى للناس بيده ولسانه ظالم ، والبخيل بمعونة المحتاجين بماله وجاهه ظالم والضنين بعلمه ونصحه لمن بدت حاجته إليه ظالم ، إلى غير ذلك من الأمثلة .

---

(١) الحديث بتمامه فى صحيح مسلم باب تحريم الظلم .

ثانياً : مرحلة الدعوة

قال الله - تعالى - : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين »[١] .

الضلال هو العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التى يطلبها العاقل من سيره الحسى ، أو المعنوى ، وغاية الدين تزكية النفس بمعرفة الله وعبادته ، وما شرعه من الأعمال و الآداب للفوز بسعادة الدارين .

وأما عبادة غير الله - تعالى - ولو بقصد التقرب إليه - فهى مدنسة للنفس مفسدة لها ، فلا توصلها إلا إلى الهلاك الأبدى ، والتعبير عنها بالضلال ليس فيه سب ولا جفاء ولا غلظة كما زعم من إستشكله من الولد للوالد ، وقابله بأمر الله - تعالى - لموسى وهارون - عليهما السلام - أن يقولا لفرعون قولا لينا ، وأجيب عنه بأنه حسن للمصلحة كالشدة فى تربية الأولاد أحيانا ، ولأنه ليس من الأدب مع الآباء تركهم وما هم فيه من باطل تأدباً معهم .

ولئن كان هذا العمل مغضبا للآباء فهو مرض لله - عز وجل - وحق الله فوق حق الآباء ، ومن ناحية أخرى فإن الأب قد أحسن إلى ولده الإحسان كله بتربيته ، والإنعام عليه ، فكان من اللائق مكافأته على هذا الإحسان ، وإن أكبر إحسان للأب دعوته إلى ما فيه سعادته ، وإنقاذه

---

(١) الأنعام : ٧٤

من عذاب الله، ومن فوائد دعوة إبراهيم لأبيه أن يقيم الحجة على قومه حتى لا يقولوا : لماذا يترك أقاربه فى ضلالهم ويدعونا ؟

أليس من اللائق أن لا يفرق بين قريب وبعيد إذا كان ما يقوله حقاً ؟ فلكى تنقطع أعذارهم دعا أباه إلى عبادة الله وحده كما دعا قومه ، وكان قوياً فى الحق ، شديداً على أهل الضلال أياً كانت مكانتهم منه .

بين إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه الذين يعبدون الأصنام أنهم جميعاً فى ضلال بين ظاهر لا شبهة للهدى فيه ، فإن هذه الأصنام التى اتخذتموها آلهة لكم لم تكن آلهة فى أنفسها بل باتخاذكم وجعلكم ، ولستم من خلقها ولا من صنعها بل هى من صنعكم : ولا تقدر على نفعكم ولا على ضركم ، لأنها تماثيل تنحتونها من الحجارة ، أو تقتطعونها من المعادن ، فأنتم أفضل منها ، ومساوون فى أصل الخلقة لمن جعلت ممثلة لهم من الناس ، ولا يليق بإنسان أن يعبد ما دونه ، ولا ما هو مساو له فى كونه مخلوقا مقهـــوراً بتصرف الخالق ، ومربوبا فقيراً ، ومحتاجاً إلى الرب الغنى القادر .

والقوم فى عبادتهم للأصنام كانوا فريقين : فريق يرى أنها الآلهة الحقيقية التى تنفع وتضر ، وتعطى وتمنع وغير ذلك ، وهذا الفريق هو الذى صار على سنة التقليد الأعمى للآباء والأجداد ولو كانوا على باطل وضلال ، وحكى القرآن الكريم ذلك على لسان إبراهيم عليه السلام . عندما سأل قومه « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا بل وجدنا آباءنا لها عابدين »(١) .

---

(١) الأنبياء : ٥٢ ، ٥٣

وهذا السؤال من سيدنا إبراهيم إنما هو تجاهل لأصنامهم ، ليحقر آلهتهم ، ويصغر من شأنها مع علمه بتعظيمهم إياها وإجلالهم لها ، كما تقول إذا ذكر أمامك رجل من الناس بلسان المستخف المنكر لأن يكون هناك رجل له ذلك الإسم : ومن ذلك الرجل ؟

فكان جوابهم عن ذلك أن قالوا : « وجدنا آباءنا لها عابدين » فكل ما عندهم من حجة لعبادة هذه الأصنام أنهم وجدوا آباءهم عابدين لها ، وما دام ذلك عمل الآباء والأجداد فكيف نحيد عنه .

والواقع أن سنة التقليد هي سنة أعداء الرسل جميعاً ، وعادتهم في التخلص من دعوة الحق أن يعمدوا إلى الآباء فيتمسحوا بهم ، وإلى السابقين فيتمسكوا بطريقهم ، وإن كان السابقون ليسوا من الحق ولا من العلم في قليل ولا في كثير « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »(١) .

يقول الإمام الزمخشري : ما أقبح التقليد ، والقول المتقبل بغير برهان وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل ، وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء ، وجادون في نصرة مذهبهم ، ويجادلون لأهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم(٢) .

والفريق الثاني كانوا يعبدون الله تعالى ويتقربون بعبادتهم للأصنام

---

(١) البقرة : ١٧٠ .
(٢) دعوة الرسل إلى الله ص ٥٩

إليه سبحانه ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا النوع فى قوله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »(١) وهذا النوع موجود فى مختلف العصور ، وبين كثير من أقوام الأنبياء عليهم السلام .

وقد أثبت بيروسوس ونيلوس أن علماء قوم إبراهيم وكهانهم كانوا يعرفون حقيقة التوحيد ؛ ولكن كانوا يدينون بها فى أنفسهم ولا يبيحونها للعامة(٢) .

أخذ ابراهيم عليه السلام ينفر قومه من عبادة الأصنام ، ويدعوهم الى عبادة الإله الواحد جل وعلا ولكن القوم تعجبوا من صنيعه معهم ، وحسبوا أنه قال ما قال فى آلهتهم على وجه المزاح والمداعبة لا على سبيل الجد ، فقالوا له « أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » فأراهم أن الأمر جد لا لعب ، وأن أولئك الأصنام لا تستحق أن تكون لهم أربابا ، بل الذى يستحق ذلك هو رب السماوات والأرض الذى خلقهما على غير مثال سبق أو فطر الأصنام التى تعبدونها ، وأنا شاهد على ذلك بالحجة والبرهان ، لأنى لست مثلكم أقول ما لا أقدر على إثباته .

ثم لم يكتف نبى الله ابراهيم بإنكاره على قومه عبـــادة الأصنام ، وتضليلهم فى ذلك العمل هم وسلفهم السابقين ، بل اتبع القول بالعمل ، فأقسم ليكيدن أصنامهم بعد أن يتركوها ، وأخذ يكسرها صنما بعد صنم حتى صارت قطعاً صغيرة ، عدا صنمهم الأكبر تركه بدون تكسير

---

(١) الزمر : ٣ .
(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ٤٧٠ ، ٤٧١

علىهم يرجعون إليه فى حل ذلك الإشكال ، ومعرفة المعتدى على جيرانه من الأصنام أو علىهم يرجعون إليه فيسألونه لماذا تتحمل الإهانة للأصنام وأنت مطرق ساكت ؟ ولماذا لا تدفع عنهم الأذى الذى حل بهم ؟ ولعل ذلك المنطق يقودهم إلى معرفة الإله الحق ، ويقولون فى أنفسهم : ما بالنا نعبد آلهة لا تدفع الشر عن نفسها ، وإذا كانت من العجز إلى ذلك الحد فكيف تدفع الشر عن عابديها ، وما قيمة إله بلغ من العجز إلى ذلك الحد المزرى ؟

ولما رأى القوم ما حل بآلهتهم سقط فى أيديهم ، وأخذ يسأل بعضهم بعضاً « قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » ، وأخذوا يبحثون عنه ، ويتلمسونه فى القوم ، فقال قائلهم : « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » فأمروا أن يؤتى به على مرأى من الناس علهم يشهدون عليه بما فعل ، ويشهدون عقوبته على ذلك العمل الجرىء ، ثم سألوه : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم » ؟ قال – متهكما بهم – « بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون » « ف » لما ألقمهم الحجر ، وأخذ بمخانقهم « رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون » بسؤال إبراهيم ؛ وعدم سؤال الصنم الأكبر ، أو رجعوا إلى أنفسهم ليحاسبوها على عبادة هذه الأصنام التى بلغت من الضعف إلى ذلك الحد المخجل فقالوا : إنكم أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادتها ، ثم انتكسوا وانقلبوا راكبى رؤوسهم عن تلك الحالة ، فأخذوا فى المجادلة بالباطل ، أو انقلبوا على رؤوسهم خجلا من ابراهيم ، وانكسارا قائلين له : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » فلماذا تدعونا إلى سؤالهم .

وهل تريد بذلك السؤال شيئاً وراء التهكم بآلهتنا ، والزراية بمعبوداتنا ؟.

فلما علم نبى الله إبراهيم أنهم لا يصيخون لحجة ، ولا يستجيبون للدعوة ولا يؤمنون ببرهان قال لهم بأسلوب المتضجر : « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » ولما غلبهم بالحجة الظاهرة ، وأغلق عليهم باب الجدل لجئوا إلى التعذيب والإهانة لرسول الله ، وقالوا فيما بينهم : « حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » أى إن كنتم تريدون نصراً مؤزراً لآلهتكم فإحراق إبراهيم بالنار هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا النصر .

فقال الله سبحانه للنار « كونى برداً وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين »(١) .

وتلك سنة الله مع رسله إذا حزبهم الأمر ، وبلغت بهم الشدة منتهاها أن يأتيهم النصر من عنده ، فينجوا به المتقون ، ويخذل المستكبرون والمعاندون كما قال تعالى « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين »(٢) .

وأنجاه الله ومعه لوط حيث ذهبا إلى بلاد الشام ، ووهب له إسحاق ويعقوب . وجعلهم كلهم من الصالحين ، وجعلهم أئمة يهدون الناس إلى الحق بأمر الله سبحانه ويوحى إليهم بفعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ويكونون لله عابدين ، وعند حدوده واقفين .

---

(١) الأنبياء ٦٩ ، ٧٠ (٢) يوسف ١١٠

دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم

بدأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوته إلى الله ـ تعالى ـ عند ما نزل عليه قوله سبحانه « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » حيث دعا قومه وهو على جبل الصفا قائلا : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدق ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قط ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . (١) .

ولما نزل قوله « وأنذر عشيرتك الأقربين » جمعهم ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها الجنة أبدا ، أو لنار أبداً . (٢) .

بدأ على الصلاة والسلام يبلغ رسالة ربه كما أمر ، وكان من الطبيعى أن يعلم بها أسرته أولا التى علمت خبر الناموس من أول مجيئه ، فاستجاب للدعوة خديجة وعلى وزيد بن حارثة ، وعلم بهذا الأمر خاصة أصحابه ، فأسلم أبو بكر الصديق ، وكان رضى الله عنه رجلا مؤلفا لقومه ، محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير

(١ ، ٢) رواه البخارى .

وشر ، وكان تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتون إليه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، ثم أسلم غيرهم من السابقين (١) .

ثم خرجت الدعوة من نطاق الأسرة الخاصة ، ومدت فروعها إلى الأسرة العربية العامة التي تمثلها الشخصيات المذكورة ، ولم يكن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليواجه الناس بها علنا قبل أن يتخذ له أعوانا ، وحتى يقلب الناس النظر في الدعوة الجديدة ، ويبحثوها على مهل ، فاستمر على منهجه في سرية الدعوة الذي لا يعد وسماع الناس به ، وإعجابهم بما جاء به ، أو دهشتهم إليه :

إن أمر الدعوة المحمدية قد يكون سهلا ميسورا لو أنه كان مجرد فكرة للرسول صلى الله عليه وسلم ـ ولمن يعجب به دون أن يكلف بعرض هذه الدعوة على غيره ، ويعلن بها جهراً أنها تهدم ما تواضع عليه الناس من عقائد وسلوك لا تتفق معها ، لكنها دعوة جاءت للتبليغ والنشر : فبعد الفترة السرية التي مهدت لها جهر بها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ علنا في شكل تام بين أسرته الكبيرة من قريش لعلها تسلم معه ، أو على الأقل لا [illegible] ، فتراه عليه الصلاة والسلام ينادي على الصفا صادعا بأمر ربه

(١) انظر تهذيب سيرة ابن هشام تأليف عبد السلام هارون ص ٥٣ ، ٥٤ .

ويبنى نداءه على أسلوب نفسى حكيم حين ينتزع منهم أولا الإعتراف بأنه صادق أمين ، وأنه لا يغشهم ولا يخدعهم ، وأنه لو كذب على الناس جميعاً لن يكذب عليهم ، ولو غرر بالناس جميعاً لن يغرر بهم ، وهذا أسلوب عظيم فى أخذ الحجة على الغير ، ولكن عناد القوم صرفهم عن الإيمان به ، بل دعاهم إلى الإستهزاء به والكيد له ، وصدق الله إذ يقول : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا .. » (١) .

لقد أرادوها دعوة أرستقراطية تنزل على السادة منهم ولا يزاحمهم فيها سواد الناس من الفقراء والعبيد ، وأرادوها دعوة عنصرية تراعى فيها الأحساب والأنساب وما إلى ذلك ، ولكن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، والرسالة تكريم يكرم الله به من يصطفى من عباده لمواصفات أدبية عالية لا تكون لكل الناس .

لقد قال الوليد بن المغيرة : أينزل على محمد وحى وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك عروة بن مسعود الثقفى ونحن عظيما القريتين ـ مكة والطائف ـ فأنزل الله فى ذلك قوله : « وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك .. » (٢) .

ولما قال الأخنس بن شريق لأبى جهـــل ، وكانا قد سمعا القرآن مع أبى سفيان من النبى ليلا : ما رأيك فيما سمعنا من محمد ؟ أجابه ماذا سمعت ؟

---

(١) النمل : ١٢ .

(٢) الزخرف : ٣١ ، ٣٢ .

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، ونزل في ذلك قوله تعالى «وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته» (١).

وقد طلب سادة قريش من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يطرد من حوله العبيد والفقراء متناسين أن الإسلام دين عام لكل الأجناس والطوائف فيقول الله لرسوله «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ..» (٢).

لقي النبي - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه من ضروب الأذى ما لقوا فصبروا وصابروا، وكان عليه الصلاة والسلام أسوتهم الحسنة في التحمل مؤكداً لهم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، وعندما تقدم إليه خباب بن الأرت بتقرير شفهي عن الدعوة وما يوضع في طريقها من عقبات لمحاولة القضاء عليها قال له الرسول - عليه الصلاة والسلام -: إن من كان قبلكم كان يؤتى بالرجل فتحفر له الحفرة، ويوضع فيها، وينشر بالمنشار ويشق نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد مادون

---

(١) الأنعام: ١٢٤.
(٢) الكهف: ٢٨، ٢٩.

لحمه وعظمه ما يخرجه ذلك عن دين الله ، ثم يقسم عليه الصلاة والسلام بأن الله ناصرهم فيقول : «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(١).

خرج النبي – عليه الصلاة والسلام – بالدعوة من حدود مكة الجغرافية والقبلية ، وذهب بها إلى ثقيف بالطائف آملا فيهم الخير ، ولكنهم ردوه أقبح رد ، ومع ذلك لم ييأس من النجاح ، ولم يقطع الرجاء فى تكوين أمة مؤمنة ولو بعد حين ، وقال كلمته المشهورة : (أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً) ثم دعا لهم وقال (اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون) (٢) وظل عليه الصلاة والسلام يتابع الدعوة على الرغم من كل العقبات. وهداه تفكيره الواسع والعميق إلى أن يوسع دائرة الدعوة لتعم سكان الجزيرة العربية كلها ممثلة فى الوفود التى ترد كل عام تشهد موسم الحج من جميع أنحاء الجزيرة ، فعرض الدعوة على القبائل فى لطف عرضا عالميا ليست له فيه أغراض خاصة ، ولا حدود تقف بها عند نقطة معينة لا تتجاوزها ، كما كان عليه الصلاة والسلام لا يسمع برجل قدم مكة وله شرف فى قومه وعشيرته إلا جلس إليه يحدثه عن الإسلام وعن تعاليمه السمحة ، وبهذه الطريقة سرى خبر الدعوة إلى الجزيرة العربية كلها ، فوفد عليه بعض الأفراد بمكة فأسلموا ، ورجعوا إلى قومهم منذرين ، وبلغ من من حكمته عليه الصلاة والسلام أنه كان يرجو من هؤلاء الوافدين ألا يأتوا

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المناقب .
(٢) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٦٢ .

بأقوامهم المسلمين إلى مكة وهو فى هذه الحالة من الحصار القرشى حتى لا تحدث فتنة لا يستطيع النبي معها أن يحمى الوافدين، فتكون حرب طاحنة تعرقل سير الدعوة وهى ما تزال تحبو ؛ بل أوصاهم أن يلحقوا به إن استقر به المقام فى مكان يصبح آمنا فيه على نفسه وعليهم .

ومن هؤلاء الوافدين إلى مكة الطفيل بن عمرو الدوسى الذى دعا قومه ، ثم وفد بهم على النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد فتح مكة ، وأبو ذر الغفارى الذى أسلم نصف قومه بدعوته ، ثم أسلم الباقون بعد الهجرة النبوية، وسويد ابن صامت وكان شاعرا لبيبا من سكان يثرب جاء مكة حاجا أو معتمرا ، فدعاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام ، وتلا عليه القرآن فأسلم فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعاث ، وأفراد آخرون غير هؤلاء أسلموا وحسن إسلامهم .

ثم تخطت الدعوة وهى فى مكة حدود الجزيرة العربيه فوصلت إلى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة ، وذلك عن طريق هجرة جماعة من المسلمين الأولين ، وإقامتهم فيها عدة سنين ، ولم يكن الغرض من هجرتهم تبليغ الدعوة بل طلب الأمان والاستقرار بعد أن تزايد اضطهاد قريش لهم ومحاولة الحاق الأذى بهم ، فقابلهم النجاشى ، واطلع على بعض ما جاءت به الدعوة الإسلامية فأنصفهم وحماهم .

وأخيراً تم لقاء النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأوس والخزرج الوافدين من المدينة، ففتح الله قلوب أهلها للإسلام، فعادوا ونشروا الإسلام فى المدينة ، ومهدوا بكثرة عددهم لهجرة النبى - عليه الصلاة والسلام - والمسلمين إليها فكانت الهجرة المباركة .

الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة

بعد الهجرة إلى المدينة وجد النبي عليه الصلاة والسلام - فيها جبهتين معارضتين انضمتا إلى الجبهة الثالثة التي تركها في مكة وهي قريش ، الجبهة الأولى أهل الكتاب اليهود والنصارى وكان اليهود في المدينة قوة عظيمة في العدد والعتاد والمال ، والجبهة الثانية تمثلت في المنافقين الذين أسس حزبهم اليهود ، ووجهوهم إلى الأغراض التي يريدون تحقيقها ، فماذا يفعل الآن ؟ .

إنه عليه الصلاة والسلام لم ينزل المدينة ليستريح من أذى قريش ، فإنه يعلم أنها لن تتركه ينعم بالراحة ، ولن تتيح له الفرصة ليقوى فيكون قوة أخرى في الجزيرة تنافسها السيادة ، كما أنه عليه الصلاة والسلام لم ينزل المدينة ليستريح من أعباء الدعوة ، فإن الأوامر السماوية ما زالت تلاحقه بوجوب متابعة التبليغ ليبرىء ذمته منها ، فما لبث عليه الصلاة والسلام أن عقد أول معاهدة دولية بين المسلمين واليهود والمشركين ، وهي من أنفس العهود الدولية وأمتعها ، وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافة ، وأولاها بأن تكون نبراسا للمسلمين في أصول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى ، هذا فضلا عن أن عقدها ابتدأت به الدولة الإسلامية حياتها ، وبدأ الإعتراف بالمسلمين كدولة .

كما أن هذه الوثيقة هي عقد حسن جوار ، وتعاقد دفاعي ، وتعاون ضد العدوان قصد به مجموعة من دويلات كل منها يتمتع في نطاق هذا الميثاق

بسيادته الخاصة على قومه ، وبحريته فى الدعوة لدينه ، ويتكافل الموقعون عليها على نصرة بعضهم بعضا ، وحماية عقائدهم ممن يريد أوطانهم أو جماعتهم بسوء ، وهم بذلك يكفلون حرية العقيدة ، وحرية الدعوة لأعضاء الميثاق على الرغم من تباين معتقداتهم(١) .

---

(١) أورد الأستاذ عبد الرحمن عزام نص المعاهدة فى كتابه القيم « الرسالة الخالدة » ص ١٠٦ وما بعدها نقلا عن كتاب الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة للدكتور محمد حميد الله الحيدرى أبادى .

نماذج من جهوده عليه الصلاة والسلام

فى المدينة

(١) عندما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة دعا اليهود إلى الإسلام فأبوا ، إذ كانوا يعتقدون أنهم خارج نطاقها ، لأنهم أهل كتاب لا حاجة لهم إلى كتاب غيره ، ولأن النبى المنتظر كان فى اعتقادهم أنه سيكون من سلالتهم ، فاكتفى منهم الرسول عليه الصلاة والسلام بادىء الأمر بعقد المعاهدة التى تنص على حسن الجوار ، وعلى التعاون فى حماية البقعة التى تضمهم جميعاً ، وعلى أن يأمنوا على دينهم وأموالهم ، وأن تترك لهم حرية التدين ، وأن يعاملوا بالحسنى ، وليس هذا فحسب . بل إنه عليه الصلاة والسلام استمر على استقبال قبلتهم « بيت المقدس » ليبين لهم أنه ليس بدعا من الرسل ، وأنه لم يجىء للهدم والتخريب بل جاء للإصلاح والتكميل . ولم يجىء بالأنانية والاستبداد بل بالتعاون والمحبة والسلام ؛ وعلى الرغم من أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وكانوا يستفتحون به من قبل على الأوس والخزرج ناصبوه العداء ، ونقضوا العهد الذى بينهم وبينه ، ووضعوا فى طريقه العقبات ، وحاولوا غير مرة أن يقتلوه ، فكان جزاؤهم الجلاء عن المدينة إلى خيبر وأذرعات وأماكن أخرى ، وفى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ـ تم إجلاؤهم عن الجزيرة العربية نهائياً ، فلم

يبق فيها إلا دين واحد وهو دين الإسلام ، إستجابة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب »(١) لكن طاقة الأمة الإسلامية فى عهده عليه الصلاة والسلام وعصر أبى بكر الصديق لم تكن تسمح لهذا النص النبوى بأن يأخذ حرية التنفيذ ، فلما أعز الله الإسلام فى أرضه بالجزيرة العربية ، وفى فتح فارس والشام ومصر أمضى عمر رضى الله عنه هذا التوجيه النبوى السديد ، والواقع أنه إجلاء صورى . لكن حقيقته أنه تحويل أو تجنيب من جهة إلى جهة ، وفى داخل حدود الدولة ورعايتها . وما تركوه وراءهم عند جلائهم عوضوا مثله فى الأرض التى استقروا فيها بعيداً عن الجزيرة العربية .

(٢) ودعا النبى صلى الله عليه وسلم النصارى إلى الإسلام . ولكن بطريق غير مباشر حيث كانوا يقيمون بعيداً عن المدينة فى أطراف الجزيرة فأرسل إليهم البعوث . وأرسل إليهم الكتب كما سنوضحه فيما بعد ـ إن شاء الله ـ .

وقد أخبر الحق سبحانه عن شدة عداوة اليهود للإسلام والمسلمين . وعن ضعف مقاومة النصارى للدعوة فقال سبحانه : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون »(٢) .

---

(١) سبل السلام جـ ٤ ص ٦١

(٢) المائدة : ٨٢

(٣) وسار النبى صلى الله عليه وسلم مع المنافقين سيرة أساسها قبـــول الظاهر والله يتولى السرائر . وكم حدثه أصحابه بوجوب أخذهم بالشدة لوجود أمارات قوية تدل على أنهم يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام خوفاً من المسلمين : « وإذا لقوا الذين آمنوا وقالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون »(١) .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يأبى أن يأخذهم بذنبهم أولا بأول مخافة أن يقال : إن محمداً يقتل أصحابه . لا سيما أنه عليه الصلاة والسلام فى حالة ماسة إلى سمعة طيبة تسير بها الدعوة فى الطريق آمنة . وتكسب أصدقاء وأنصاراً بقدر ما يمكنها وخصوصاً أنها ما تزال فى بداية أمرها فى المجتمع الجديد بالمدينة المنورة ، حتى إذا استتب الأمر له عليه الصلاة والسلام وقضى على أكثر أعدائه بدأ فى تصفية الحساب مع المنافقين . وطهر منهم المجتمع . وكتب التفسير والسير توضح هذه المواقف فليرجع إليها من شاء .

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مشغولا بالعدو الداخلى من اليهود والمنافقين فى المدينة ، وبالعدو الخارج عنها من قريش ومن سار فى ركابها ولم يكن لديه الوقت الكافى لنشر الدعوة خارج المدينة بشكل رسمى لأن أهلها لم يطمئنوا على أنفسهم . فانتهز عليه الصلاة والسلام فرصة الهدنة التى وقعها مع قريش فى الحديبية واتخذ خطوة إيجابية لنشر الدعوة خارج

---

(١) ال[illegible]

المدينة سواء أكان فى داخل حدود الجزيرة أم خارجها . وكان يرسل بين الحين والآخر بعوثاً تبلغ الدعوة . أو ترشد المسلمين إلى واجبهم .

وينقسم الركب الزاحف بالدعوة إلى قسمين : قسم فى داخل الجزيرة وقسم خارجها .

أولا فى داخل الجزيرة

(١) البعوث إلى القبائل ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة من أصحابه فيهم عاصم بن ثابت ، ومرثد بن أبي مرثد الغنوى ، وخبيب إلى الرجيع ، وهو ماء لهذيل بين مكة والحجاز ، وذلك بناء على طلب رهط قدم إلى النبى صلى الله عليه وسلم - من عضل والقارة ليفقهوا المسلمين فيهم ، ولكنهم غدروا بهذه البعثة .

وبعث عليه الصلاة والسلام جماعة من القراء إلى بئر معونة ، وكانوا نحو سبعين على بعض الأقوال بناء على طلب ملاعب الأسنة ، فغدروا بهم أيضاً .

وبعث الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب فأسلموا ، ووفد منهم جماعة على النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة .

كما أرسل النبى عليه الصلاة والسلام إلى اليمن معاذ بن جبل ومعه أبا موسى الأشعرى ، وأسلم غالب الناس على أثر هذا البعث ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام - قد زود هذين الصحابيين بتوجيهات ونصائح يجب أن يدرسها الدعاة إلى الله فى العصر الحاضر ، وأن يتمسكوا بها حتى تصل دعوتهم إلى قلوب المدعوين ، وسنذكر هذه التوجيهات فيما بعد مفصلة - إن شاء الله - .

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى السنة العاشرة إلى بنى عبد المدان فى نجران ، وكانوا نصارى ، ليدعوهم إلى الإسلام فأسلموا ، وأقام رضى الله عنه مدة فيهم يعلمهم ، ثم وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه بعضهم ، ثم أرسل إليهم عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ومعه كتاب مفصل .

إلى غير ذلك من البعوث الكثيرة التى أفاضت فى ذكرها كتب السير .

(٢) البعوث إلى الزعماء منهم المهاجر بن أمية المخزومى إلى الحرث ابن عبد كلال أحد أقيال اليمن فأسلم ، وجرير بن عبد الله البجلى إلى ذى الكلاع وذى عمرو الحميرى فأسلما ، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين فأسلم ، وعمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان فأسلما ، وسليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة فلم يسلم ، وشجاع بن وهب إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى وهو بغوطة دمشق فلم يسلم إلى غير ذلك من البعوث التى توجهت إلى زعماء القبائل العربية ، فمنهم من أسلم ومنهم من صد عن الإسلام ، ولكنه فى نفس الوقت علم بأمر الرسالة وبأمر صاحبها ، ومدى قربها من الصدق ، أو بعدها عنه .

ثانياً فى خارج الجزيرة العربية

أما البعوث الخارجية فتتمثل فيمن حملوا كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى كبار الملوك المجاورين للجزيرة العربية ، والذين يمثلون القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوربا ، وكان ذلك فى السنة السادسة للهجرة .

١ ــ كتب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى هرقل قيصر الروم ، وأرسل الكتاب مع دحية الكلبى ، فسلمه إلى عظيم بصرى الحرث بن أبى شمر الغسانى الذى أعطاه بدوره إلى هرقل ، ونص الكتاب ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)(١) .

وعندما وصل الكتاب إلى هرقل ، وقرأه استدعى أبا سفيان الذى كان موجوداً فى ذلك الوقت فى تجارة بالشام وقت الهدنة ، وأخذ يسأله

---

(١) صحيح البخارى : كتاب بدء الوحى .

عن رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ يقول أبو سفيان : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره ، فجعل لا يلتفت إلى .

ثم قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا .

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى هدنة لا ندرى ما هو فاعل فيها . يقول أبو سفيان : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ قلت يقول : أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال هرقل للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت أن لا . فقلت : لو كان

أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان مايقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه . (١) .

وجاء فى آخر هذا الحديث أن هرقل مال إلى الإسلام ، وجمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب ، واستشارهم فى اعتناق الإسلام ، فحاصوا حيصة حمر الوحش (٢) وأظهروا كراهة ذلك ، ولما رأى نفورهم قال : إنما قلت لأختبر صلابتكم فى دينكم ، وظل على نصرانيته .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب بدء الوحى .

(٢) شبههم بالوحوش لأن نفرتها أشد من نفرة البهائم الإنسية ، وشبههم بالحمر دون غيرها من الوحش لمناسبة الجهل وعدم الفطنة بل هم أضل [illegible]

وجاء فى مسند الإمام أحمد أنه كتب من تبوك إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإسلامه ، فقال عليه الصلاة والسلام : كذب بل هو على نصرانيته .

ب ـ وبعث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ومعه كتاب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس . (١) .

وكان على عبد الله بن حذافة أن يدفع الكتاب إلى عظيم البحرين المنذر ابن ساوى ليدفعه بدوره إلى كسرى ، فمزق كسرى الكتاب ولم يسلم ، بل أخذته العزة بالإثم ، فأرسل إلى باذان ـ عامله على اليمن ـ وأمره أن يوجه إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من يقتله ، فمزق الله ملكه ، وقتله ابنه شيرويه .

ولما جاء رسولا باذان إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرهما بموت كسرى وبدعوة باذان إلى الإسلام ، فلما عادوا خبراه بذلك ، وتحقق صدق خبر رسول الله بموت كسرى أسلم وأسلم معه كثيرون من الفرس الذين كانوا باليمن ، وهو يعتبر أول من أسلم من ملوك وأمراء اليمن .

جـ ـ وكتب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المقوقس ـ عامل هرقل على مصر ـ وبعث بالكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة ، فسلمه إليه بالإسكندرية

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ١٤٦ .

وبعد محاورة طويلة مع حاطب قال : سأنظر ، وبعث إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهدايا قيمة ولم يسلم (١) .

د ـ وكتب عليه الصلاة والسلام إلى النجاشي ملك الحبشة كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، ويطلب منه أن يرسل جعفرا ومن معه من مهاجرى الحبشة ، والذى بعثه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالكتاب هو عمرو بن أمية الضمرى ، ففعل النجاشى ما طلب منه فأرسل جعفرا ، وأجاب إلى الإسلام ، ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ـ وفاته صلى عليه بالمدينة (٢) .

إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة التى بعث بها إلى رؤساء وقياصرة الأمم المجاورة للجزيرة العربية ، وبذلك يكون النبي ـ عليه الصلاة والسلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلمهم بدعوته ، ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الإعلان سببا فى إجابة بعض ، وشاغلا لفكر الآخرين ، فلم يلحق عليه الصلاة والسلام بربه إلا ومعظم سكان الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه ، وفى خارجها عرف اسمه ودينه ، وعلم به سادة الأمم ورؤساؤهم .

وإتماما للفائدة سنلقى ضوءاً على هذه الكتب فنلاحظ فيها ما يأتى :

أولا : أنها كتبت باللغة العربية ، وهى اللغة الرسمية للدولة الإسلامية التى ترجمت إلى لغة المبعوث إليهم، إما على يد حامل الرسالة، وإما بواسطة

---

(١) السابق ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) السابق ج ١ ص ١٤٦ .

مترجم محلى ، وهو الظاهر ، وقد ذكر ابن سعد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألقى كلمة توجيهية فى البعوث جاء فيها : إنصحوا الله فى عباده ، فإن من استرعى شيئاً فى أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة ، إنطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم ، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد ، فأصبحوا يعنى الرسل ـ وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم ، فذكر ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم فى أمر عباده .

وإذا صح هذا الخبر وكان ذلك إكراما لرسول الله فى أشخاص هؤلاء ، فإن معرفتهم باللغات لا تعدو أن تكون سطحية بقدر يسير لا يعتمد عليه فى المهمات الرسمية الدقيقة ، وقد جاء فى خبر كتاب النبى عليه الصلاة والسلام إلى هرقل عندما سلمه إليه دحية أن هرقل دعا الترجمان الذي يقرأ العربية فقرأه .

والكتابة الرسمية باللغة الرسمية للجهة المرسلة ضمان أكيد لدقة التبليغ بالمعنى الذى يريده المرسل حتى إذا حدث خطأ فى الترجمة كانت التبعة على المترجم لا على الكتاب ولا على مرسله .

ثانيا :أن كتبه عليه الصلاة والسلام إلى هؤلاء الملوك كانت على خلاف كتبه إلى أمراء العرب ، فقد ختمت بخاتم النبي ـصلى الله على وسلم ـ وكان نقشه « محمد رسول الله » (١) . ولهذا الخاتم أهميته فى الوثوق من رسمية

---

(١) رواه البخارى فى كتاب اللباس .

الكتاب ، وصدوره عن مرسله ، وفيه تكريم لهؤلاء الكبار على ما كان متبعا عندهم .

ثالثاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتبع في إرسال هذه الكتب طريقاً دبلوماسياً عظيماً ، إذ بعث بها إلى ممثلي هؤلاء الملوك في بلاد العرب ليكونوا وسطاء في توصيلها إلى الملوك ، وهو تقليد يجري عليه العرف الدبلوماسي اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام منذ قرون بعيدة .

رابعاً : النقط الجوهرية التي دعت إليها هذه الكتب هي :

التوحيد ، والإيمان برسالة محمد ، وهذا ترتيب طبيعي في الدعوة يبدأ فيها بالأصول أو المبادئ العليا ، فإذا حصل التصديق بها جاءت الفروع بعد ذلك .

خامساً : كانت الدعوة إلى الملوك دعوة إلى العالم كله ، أو إلى غالبه بوصفهم ممثلين للشعوب التي يحكمونها ، والأجناس التي تعيش تحت ظلهم ، وقد كان للإمبراطورية الفارسية مستعمرات تحتها أجناس ، وللإمبراطورية الروم كذلك مستعمرات كبيرة ومتعددة ، وكذلك كان للحبشة نفوذ في البلاد المجاورة لها . انظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام في كتبه « إلى هرقل عظيم الروم» وقوله «فإن توليت فعليك إثم الأريسيين » أي الفلاحين والمقصود فعليك إثم الأتباع والرعية لأنهم اتبعوك ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام « إلى كسرى عظيم فارس » وقوله « فإن توليت فعليك إثم المجوس » أي عبدة النار فإنهم أتباعه ورعيته ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام « إلى النجاشي ملك الحبشة » وقوله « فإن توليت فعليك

إثم النصارى من قومك ، وهكذا فى سائر الكتب ، وهذا يؤكد أن الدعوة الإسلامية دعوة عامة وشاملة لجميع البشر .

سادساً : جاء فى كتابه عليه الصلاة والسلام إلى هرقل هذه الآية الكريمة قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

وفى ذلك دعوة تامة إلى المساواة « كلمة سواء بيننا وبينكم » لا يقصد منها استعلاء ولا تحكم ولا استغلال ، كما أن فيها رفع لكرامة الإنسان ، ودعوة إلى عدم خضوع أحد لأحد خضوع عبادة ، فلا معبود إلا الخالق ، والمخلوقون جميعاً ضعاف يتساوون فى الدينونة إلى الله « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » كما أن فيها تقليد دبلوماسى رائع أساسه الدعوة إلى السلام والإحترام المتبادل بين الأمم ، فإذا قام مجتمع جديد ، أو شكلت حكومة جديدة ثائرة على أوضاع قديمة يبلغ الأمر إلى الدول الأخرى إخطارا بالأساس الذى قام عليه المجتمع أو شكلت الحكومة لعلها تقلد ، أو تعجب ، أو تمنح الفرصة لتدرس ، فإن لم تسر على المنهج الذى اتبعته الحكومة الجديدة ، فحسب المجتمع الجديد أن تعترف الدول الأخرى بوجوده ، وبكونه حقيقة واقعة تسرى عليه الإجراءات الدولية المتبعة فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » أى إننا

(١) آل عمران ٦٤ .

تدخلوا فيما دخلنا فيه فأقروا بوجودنا الإسلامى ، وعاملونا على هــذا الأساس (١) .

وإلى جانب إيفاد البعوث ، وإرسال الكتب لنشر الدعوة كانت ترد الوفود على النبي - صلى الله عليه وسلم - طائفة مختارة لتسلم رسمياً ، أو لتتعلم ثم تتولى هى نشر الدعوة بين أقوامها ، فوفد على النبى صلى عليه وسلم أكثر من ستين وفداً كان أكثرهم فى السنة التاسعة التى سميت عام الوفود ، وقد تمثلت فى هذا العام جميع قبائل العرب فى منازلها ومضاربها المختلفة .

وبهذا يكون الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد بلغ الرسالة تبليغا رسميا عاما ، ولم يشأ أن يفارق الدنيا قبل أن يؤكد هذا التبليغ فى مؤتمر عام يشهد فيه الناس أنه بلغ ، ويشهد ربه على ذلك .

لقد اجتمعت فى حجة الوداع آلاف مؤلفة ، أعلن الرسول - عليه الصلاة والسلام - فيها خلاصة ما دعا إليه من مبادىء طوال الثلاثة والعشرين عاما ، ثم قال فى النهاية « فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت » ، وفى رواية « وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الأرض ويقول « اللهم اشهد » ثلاث مرات ، وأمرهم بالتبليغ عنه فقال « فليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » .

وبين لهم الأصل الثابت الذى تؤخذ منه القواعد ، وتدور على أسسه

---

(١) الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه ص ٥٦ ، ٥٧ .

الجموع فقال: «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه».

وفي هذا الموقف الجامع أعلن عليه الصلاة والسلام على الملأ أن الله قد أتم نعمته على المسلمين بهذا الدين الكامل الوافي بأغراض الحياة السمية «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ...»(١) اهـ.

---

(١) المائدة : ٣ :

المبحث الثـانى

منهج الدعوى الإسلامية

بين يدى البحث

أرسل الله رسوله بشيراً ونذيرا فبلغ الرسالة ، وكان المثل الأعلى لأمته فى دعوته وعبادته ، وفى سلمه وحربه ، ومع أهله وأصحابه ، فكان صورة حية يتمثل فيها قول الله - عز وجل - « وإنك لعـلى خلق عظيم »(١) . وقوله عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٢) .

وقد بينا فيما سبق أن صدق دعوته ، وسمو أخلاقه كانا سببا فى إقدام الكثيرين عليه والإيمان بما جاء به ومناصرته ، كما كانوا قدوة صالحـة ، وأسوة حسنة يهدون بأمر الله إلى دين الله .

والدعوة إلى الله حياة الأديان ، فما قام دين ولا ثبت مبدأ إلا بالدعوة ولا تداعت ملة ولا درست طريقة ولا تلاشت شرعة بعد قوة إلا بترك الدعوة ، حتى المذاهب الحقة تتضاءل وتزول بإهمال الدعوة إليها ، ولو كان

---

(١) ن : ٤ (٢) رواه ابن ماجه

الحق يقوم بنفسه ، وينتشر بذاته لما فرضت الدعوة إليه ، ولما كانت هناك حاجة إلى الأنبياء والمرسلين ، والعلماء العاملين ، والمرشدين الناصحين ، ولما كانت الدعوة إلى الله هي أحسن القول ، ولما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن ينبه إلى أن طريقته ومن كان قبله هي الدعوة إلى الله على بصيرة.

مراتب الدعوة

والدعوة إلى الله مراتب :

أولا : دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام

وهى أهم الدعوة لما يأتى :

(ا) أنها جمعت بين الدعوة بالحجة أولا ، والدعوة بالسيف ثانيا حماية لها ودفاعا عن الحق وأهله حين لم تغن الحجة .

(ب) الأنبياء هم المبتدئون بالدعوة والعلماء فى أثرهم .

(ج) تأثير دعوات الأنبياء أقوى لصفاء أرواحهم ، واستنارة بصائرهم ،

(د) ما ميزهم الله به من الكمال الذاتى ، والقدرة على تكميل الغير .

ثانيا دعوة العلماء

ثالثا : دعوة الملوك او الحكام ، والمرتبتان ماضيتان فى طريق دعوة الأنبياء بالخلافة عنهم .

فالعلماء نواب الأنبياء فى العلم ، والحكام العادلون نواب الأنبياء فى القدرة على تنفيذ أوامر الله ، والعلم يستوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة طريق الاستيلاء على الأبدان ، فالعلماء خلفاء الأنبياء روحياً ، والحكام خلفاؤهم ماديا ، والأنبياء قد فضلهم الله بالجمع بين صفتى العلم والقدرة .

والمسلمون فى كل زمان ومكان متفاوتون فى القدرة على الدعوة ، وفيما يجب عليهم لها تبعاً لهذه القدرة ، وأقلهم فى ذلك جهداً من يطلب منه أن يكون هو فى ذاته صورة مشرفه لهذه الدعوة بأن يظهر فى سلوكه ومظاهره

وغيره الآثار الطيبة للاستجابة إلى دعوة الحق ، فيكون المسلم فى ذاته دعاية طيبة لها ، وبهذا النوع من الدعوة الخفية دانت شعوب كثيرة للإسلام دون أن توجه إليها دعوة مباشرة ، وذلك تقليدا للنماذج الصالحة من المسلمين الذين كانوا يتعاملون معهم فيرون صوراً مثالية من الصدق والأمانة والعدل فيسألون عن الدين الذى علم أتباعه هذه الأخلاق الحميدة فيدخلون فيه ، وقد حدث هذا فى البلدان التى فتحت فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ثم فى بلاد متعددة من جنوب شرق آسيا وإفريقيا .

أما الدعوة المباشرة ، والجدال وإظهار الحق فإنما هى على كل مسلم مستطيع لها متسلح فى ذلك بالعلم الذى يكفى فيما يتكلم فيه ، وأعلى المسلمين درجة فى هذا هم الدعاة المؤهلون لذلك تأهيلا كاملا فى كل مسألة فهم حجج الله الناطقة فى الأرض بالحق ، الهادمة ـ على علم ـ لكل سبيل من سبل الباطل ، والأمثلة من القرآن الكريم والسنة النبوية تبين لنا ذلك .

أولا من القرآن الكريم

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ولكل من يتبعه من الدعاة : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »(١) .

فقوله تعالى « أدع إلى سبيل ربك » بصيغة الأمر ، وهو للوجوب ما لم يصرفه عنه صارف من دليل ، ولا دليل هنا يصرفه ، فالدعوة إذن واجبة على كل مسلم حسب استطاعته ، وهى لا تكون إسلامية حقاً إلا إذا كانت إلى سبيل الله خالصة له ، لأن الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وقصد به وجهه .

الحكمة

« بالحكمة » والمراد بها فى مجال الدعوة أن يكون الداعية واعياً لدعوته فاهما لقصده ، عليما بأفضل الطرق المؤدية إلى الغرض على خير وجه ، وبالقواعد التى تلزم لأنماط المدعوين وطوائفهم ، وقد وردت كلمة الحكمة فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع وفى كل موضع منها تحمل معنى يغاير الآخر .

يروى عن مقاتل أنه قال : تفسير الحكمة فى القرآن الكريم على أربعة أوجه :

---

(١) النحل ١٢٥ .

(١) قوله تعالى فى سورة البقرة « وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » وفى سورة النساء « وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم » وهى فيهما بمعنى الوعظ والتذكير .

(٢) الحكمة بمعنى الفهم والعلم ، ومنه قوله تعالى « وآتيناه الحكم صبياً » وقوله سبحانه « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وفى سورة الأنعام « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » .

(٣) الحكمة بمعنى النبوة ، ومنه قوله تعالى فى سورة النساء « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة » وفى سورة ص « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

(٤) الحكمة بمعنى القرآن بما فيه من عجائب الأسرار ، وقد جاء فى سورة النحل « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة » وفى سورة البقرة « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » ا ﻫ

وتطلق الحكمة ويراد بها فعل الصواب ، وقد قيل فى حدها : إنها التخلق بقدر الطاقه بأخلاق الله عز وجل وقد بينا فيما سبق كيف كان إبراهيم عليه السلام يدعو قومه الوثنيين على نحو ما جاء فى قوله سبحانه : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا » إلى قوله « إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » فقد استطاع عليه السلام استدراج القوم حتى أقام عليهم الحجة ، ووضع أيديهم على مواطن الضعف منهم ، وأراهم أن الكواكب على اختلافها قوة وضعفاً لا يصلح واحد

منها أن يكون إلهاً معبوداً لأنها تغيب وتحضر ، وبعد إقامته الحجة عليهم بهذا الأسلوب اللين أملى عليهم عقيدته ، فأراهم أنه برىء مما يشركون بالله ، وأنه أسلم وجهه للإله الذى فطر السموات والأرض مائلا من الباطل إلى الحق .

وفى حياة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة تبين لنا مدى حكمته فى تبليغ الدعوة ، منها موقفه عليه الصلاة والسلام من الأعرابى الذى تناوله بلسانه حين لم يرضه عطاؤه ، وغضب الصحابة من ذلك الأعرابى ، وهموا بقتله ، وكيف أن الرسول عفا عنه ومنحه المزيد من العطاء حتى قال الرجل حين سأله الرسول عليه الصلاة والسلام أأحسنت إليك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإن شئت فقل بين أيديهم حتى يذهب ما فى صدورهم عليك قال : نعم ، فلما كان الغداة أو العشى جاء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى فكذلك قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها أن خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت ، فشد عليها رحلها ، واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار(١) .

ومنها موقفه من سعنة اليهودى وقد آذاه فى دين له عليه حتى هم عمر

---

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ج ١ ص ١٢٣ ، ١٢٤

بقتله ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام له : كنت أنا وهو أحوج إلى خير من هذا منك ، تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التقاضي(١) .

ولقد كان من أثر ذلك إسلام اليهودي الذي أصبح من أحسن الناس إسلاما .

إلى غير ذلك من الأمثلة وكلها تدل على أن الدعوة إلى الله حكمة أكثر من أن تكون قوة ، أو فصاحة ، أو مهارة .

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٠٨ ، ١٠٩

نماذج من الحكمة

(أ) من القرآن الكريم :

القرآن الكريم كله حكم نسوق منها ما هو كالمفتاح لغيره ، أو المشكاة التى تكشف الطريق أمام الباحثين مثل قوله تعالى « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله »(١) وقوله سبحانه « قل كل يعمل على شاكلته »(٢) وقوله عز وجل « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »(٣) إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم ، ويطول بنا الوقت لو أردنا إستقصاءه .

(ب) من السنة النبوية :

قوله عليه الصلاة والسلام : ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله قال إن شراركم الذى ينزل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده ، أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله قال : من يبغض الناس ويبغضونه ، قال : أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله ، قال : الذين لا يقيلون عثرة ، ولا يقبلون معذرة ، ولا يغفرون

---

(١) فاطر : ٤٣ .
(٢) الإسراء : ٨٤ .
(٣) الرحمن : ٦٠ .

ذنباً ، قال : أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره(١) .

(ج) من أقوال الخلفاء الراشدين :

قال علي — كرم الله وجهه — : من لانت كلمته وجبت محبته . وقال : قيمة كل امرىء ما يحسن ، وقال عمر رضى الله عنه :

كفى بالمرء غيا أن تكون فيه خلة من ثلاث : أن يعيب شيئاً ثم يأتى مثله أو يبدى من أخيه ما يخفى عليه من نفسه ، أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه .

ومن أقوال الحكماء : من أدب ولده صغيرا سربه كبيرا .

وقالوا: ثلاث لاغربة معهن: مجانبة الريب، وحسن الأدب، وكف الأذى .

---

(١) رواه الطبرانى .

الموعظة الحسنة

والموعظة تعنى النصح والتذكير بالعواقب ، وفى الإصطلاح هى : القول الحق الذى ينير القلوب ، ويؤثر فى النفوس ، ويكبح جماح الشارد منها ، ويزيد النفوس المهذبة إيمانا وهداية .

وفضل الوعظ عظيم ، لأنه يتعلق بطب الأرواح ، وعلاج النفوس ، فالإنسان كما هو محتاج لعلاج جسمه إذا اعتل ، فهو محتاج كذلك لعلاج روحه إذا سقمت ، والروح فى الإنسان أشرف عنصريه ، وأفضل الطبين ما أصلح أشرف الجزئين .

كما أن الوعظ وظيفة الأنبياء والمرسلين ، ومن على سنتهم من العلماء والمرشدين .

وغايته : سعادة الحياة بالتحلى بالفضيلة ، والتخلى عن الرذيلة ، ثم الفوز بالسعادة الدائمة فى الآخرة .

متى تكون الموعظة مؤثرة ؟

لكى تؤدى الموعظة أثرها فى نفس المدعوين يلزم فيها ما يأتى :

(١) أن تكون ذات موضوع موحد .

(٢) أن يعالج بها واقعا يعيش فيه الناس ، وأن يجعل منها توجيها يصلح شأنهم .

(٣) أن يحسن الواعظ عرضها ، وتقسيمها إلى أجزاء متصلة ، وصياغتها فى أسلوب سهل .

(٤) أن يدعمها بالحجة النقلية من القرآن والسنة ، والحجة العقلية التى يقتنع بها السامعون مع التلطف فى القول ، والرفق فى المعاملة ، روى أبو أمامة أن فتى شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال عليه الصلاة والسلام : قربوه أدنو فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : أتحبه لأمك ، قال : لا ، جعلنى الله فداءك ، قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أتحبه لإبنتك . قال : لا ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ، وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحدة : لا ، جعلنى الله فداءك ، فوضع الرسول يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا(١) .

(٥) أن يتخلق بما يقول مظهراً ومخبراً ، فبمقدار إخلاصه فى القول والعمل ينتفع سامعوه ، فإنه مما يقوى الداعية أن تكون له شخصية متكاملة

---

(١) رواه الإمام أحمد .

تبعث على تقديره وإحترامه ولذا قال بسكال : لابد للقضاة من الجبة والشعر ، ولولاهما لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم(١) .

وروى الجاحظ أن إياس بن معاوية المزنى أتى حلقة لقريش فى مسجد دمشق فاستولى على المجلس ، ورأوه أحمر الوجه دميم الهيئة قشيفا ، فاستهانوا به ، فلما عرفوه إعتذروا إليه ، وقالوا له : الذنب مقسوم بيننا وبينك أتيتنا بزى مسكين تكلمنا بكلام الملوك ؟ ؟(٢) .

(٦) العلم بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وبالقدر الكافى من الأحكام الشرعية ، ثم العمل بذلك كله ، فرب حال أبلغ فى التأثير من ألف مقال ، قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفى .

والله ـ عز وجل ـ يقول « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون »(٣) .

(٧) أن يتجمل بالعفة واليأس مما فى أيدى الناس ، ففى وصيته صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه : عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإن ذلك هو الغنى(٤) .

---

(١) مذكرات فى علم الخطابة للشيخ إبراهيم الدسوقى أملاها على طلابه فى قسم الدعوة بكلية أصول الدين سنة [illegible] ١٩ م .

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص [illegible] .

(٣) البقرة [illegible] ٤٤ .

(٤) [illegible] رواه الطبرانى [illegible]

وقال الحسن البصري : لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع في دنياهم ، فإن فعل ذلك استخفوا به ، وكرهوا حديثه ، وأبغضوه . وقال أعرابي لأهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا : الحسن البصري ، قال : بم سادكم ؟ إحتاج الناس إلى علمه ، واستغنى عنهم ، فقال : ما أحسن هذا .

(٨) أن يعلم الداعية أحوال الناس من حيث طباعهم وأخلاقهم وتاريخهم ، مع إلمامه — بقدر المستطاع — ببعض الدراسات في علم النفس ، والتعرف على لغة القوم ، قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . . . » الآية(١) .

وروى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود ، قال زيد : حتى كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم كتبه إليهم ، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه(٢) .

كما أن عليه أن يدرس علم الإجتماع حتى يكون على بينة من أحوال الأمم في بداوتها وحضارتها ، وأسباب ضعفها وقوتها وتأخرها وتقدمها .

(٩) أن يكون الداعية ملماً بثروة كلامية يختار منها خير الأساليب التي يمتلك بها قلوب سامعيه لطلاوة العبارة ، وجمال التصوير ، وطرافة المعنى ، وحداثة الموضوعات ، مع ضرورة الإجادة في الإلقاء ، ولقد خطب الرسول عليه الصلاة والسلام في أصحابه فقال : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ،

---

(١) إبراهيم : ٤ .
(٢) صحيح البخاري : كتاب الأحكام .

وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت نفسه ، وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، بطوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة . (١) .

وخطب عمر بن عبد العزيز فقال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معادا يحكم الله فيه بينكم ، فخاب وخسر من جذع من رحمة الله التى وسعت كل شيء وحرم الجنة التى عرضها السماوات والأرض ، واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف ربه ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا بباق ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفكم من بعدكم الباقون متى تردوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وبلغ أجله ، ثم تغيبونه فى صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ، ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، غنيا عما ترك ، فقيرا إلى ما قدم ، وأيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى ، فأستغفر الله لى ولكم . (٢)

(١٠) أن يكون ذا فراسة يتعرف حال سامعيه ، وفى الحكم المأثورة : من من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مؤونه الاستماع منك .

---

(١) جمهرة خطب العرب جـ ١ ص ١٥٢ نقلا عن صبح الأعشى جـ ١ ص ٢١٣ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٠ ، ١٩١ .

وقال أحد الصالحين ، حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم ، ولحظوك بأبصارهم (١) .

كما يجب على الدعاة إلى الله أن يتجنبوا الخوض فى دقائق علم الكلام كخلق الأفعال ، والصلاح والأصلح وغير ذلك ، أو يحدثوا الناس بما لا يفهمون ، فيفسدوا على الناس دينهم ، ويشوشوا أفكارهم ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله »(٢) .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٠٤ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب العلم .

نتائج الموعظة الحسنة

أولا : تصحيح النفوس ، وصيانة القلوب من المخاطر ، والأخذ بالناس إلى الصراط المستقيم .

ثانياً : تهذيب النفوس ، وإستنارة البصائر بنور الطاعة بعد أن رانت عليها ظلمات المعاصى .

ثالثا :صلاح العالم ، وبها الحياة الحقة للأمم ، وهى سبيل بقائها ، وتركها نذير زوالها وضياعها .

وبهذا يتبين أن الداعية كالطبيب يستدل بالنبض أولا على طبيعة العلة ، ثم يقدم لها العلاج النافع ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم لنا أمثله حية على ذلك فقد قال له رجل : أوصنى ، قال له الرسول عليه الصلاة والسلام ـ :

لا تغضب : فكررها ثلاثا والرسول يقول : لا تغضب . (١) .

وفى حديث آخر عن عثمان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم ، (٢) .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب .

(٢) رواه مسلم فى باب جامع أوصاف الإسلام .

وفى حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام لسائله : عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع ، وإياك وما يعتذر منه (١) .

والسيدة عائشة رضى الله عنها توصى معاوية فتقول : من عائشة إلى معاوية سلام عليك ، أما بعد ، فإنى سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس . (٢)

(١) رواه الحاكم .

(٢) رواه الترمذى والحاكم .

المجادلة بالتي هي أحسن

وهى القول الذى يهدى إلى الحق بالمسالمة، وتحريك داعية النظر ، وتنبيه الغافل ، وهذا أساس آخر له قيمته فى نجاح الدعوة ،فليس أسرع إلى القلوب من قول يهدى إلى الحق بالمسالمة والمحاسنة .

وإنما نص القرآن على أن تكون المجادلة مع خصوم الدعوة بالتى هى أحسن لأن الجدل فى أصل إستعماله اللغوى يتضمن معنى شدة الخصومة ، لأن كل طرف يسعى إلى إظهار خطأ ما عند الآخر بكل ما يستطيع ، وهذا قد يؤدى إلى شيء من التقبيح بحق وبغير حق بغية الإنتصار فى الجدل ، فإذا أدى الأمر إلى شيء من ذلك لم يكن جدا لاحسنا ، كما أنه لا يليق بالدعوة الإسلامية لأنها حق فى ذاتها ، ووسائلها ، ومنهجها لا تخرج عنه إلى باطل أبداً ، ولأن ما فيها من الحق يغنيها عن ذلك .

ومن ثم كان الجدال المأذون فيه فى تبليغ الدعوة الإسلامية هو أسمى أنواع الجدال الذى لا يخرج عن موضوع الجدل إلى شتم ، أو تقريع لا مناسبة لها سوى الرغبة فى تحقير عقائد الخصم أمام نفسه وأمام الناس .

يقول أحد الكاتبين : إن النفس البشرية لها كبر ياؤها وعنادها ، وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة ،وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها هى بين الناس ، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها :

والقرآن الكريم يبين لنا أمثل أنواع الجدل التى تهدى الخصم إلى الخير،

أو على الأقل تدفع عن المسلمين شره وأذاه ، وذلك فى رده على المعاندين من اليهود والمشركين ، فقد سأل اليهود الرسول -صلى الله عليه وسلم عن الروح فأنزل الله تعالى «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (١).

كما سأل المشركون الرسول - عليه الصلاة والسلام عن الساعة ، فأنزل الله سبحانه - « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها » (٢) .

وكتب السير تروى لنا مواقف متعددة لمجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم - للنصارى ودعوتهم إلى الإسلام ، وكيف أن الكثير منهم كان يعتنق الإسلام على أثر هذه المجادلة ، وسنكتفى بذكر موقف واحد خشية الإطالة :

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير عن عدى بن حاتم الطائى أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته فى جماعة من قومها ، ثم من رسول الله صلى الله عليه وسلم - عليها وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها ورغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله - عليه الصلاة والسلام -فقدم عدى المدينة - وكان رئيسا فى قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم - فتحدث الناس بقدومه ، فدخل عدى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى عنقه صليب من فضة ، أو من ذهب ، فقرأ عليه الصلاة والسلام هذه الآية « اتخذوا أحبارهم

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

(٢) النازعات : ٤٢ ، ٤٣ .

ورهبانهم أربابا من دون الله » ، قال عدى : فقلت إنهم لم يعبدوهم ، فقال عليه الصلاة والسلام ، بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم، ثم قال عليه الصلاة والسلام: ياعدى أيفرك(١) أن يقال (الله أكبر) ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ ما يفرك ؟ أيفرك أن يقال (لا إله إلا الله) ؟ فهل تعلم من إله إلا الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم

وقد روى أنه لما دعاه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام قال عدى : إن لى دينا ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام ـ: أنا أعلم بدينك منك ، فقال : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم (مرتين أو ثلاثا) ، ثم قال رسول الله : ألست ترأس قومك ؟ قال : بلى ، قال : ألست ركوسيا (٢). ألست تأكل المرباع (٣) ؟ قال : بلى ، قال : فإن ذلك لا يحل فى دينك ، ثم أسلم عدى وحسن إسلامه .

وفى هذا المثال نلاحظ أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين له وجه الخطأ فيما هو عليه فى أحسن صورة الجدال ، وأرفقه بالخصم ، ولما بين له معنى عبادة الأحبار والرهبان أخذه بالرفق قائلا : ياعدى أيفرك أن يقال (الله أكبر) ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ، أيفرك أن يقال (لا إله إلا الله)؟ فهل تعلم من إله إلا الله ؟ كما بين له الرسول عليه الصلاة والسلام ـ فى جداله أنه أعلم بدينه منه ، وأقام عليه الحجة فى ذلك فى إطار من الرفق والرحمة وإظهار حب الخير له حتى هداه الله إلى اعتناق الإسلام .

---

(١) أيحملك على الفرار والهرب أن يقال ذلك .
(٢) الركوسية : طائفة نصرانية متأثرة بالصابئة .
(٣) ربع الغنيمة ، وكان رئيس القوم المطاع فيهم يأخذه دون أصحابه فى الجاهلية ، وقد حرمت المسيحية ذلك ، ولكنه كان يستحله كرئيس عليهم فأطاعوه .

وهكذا يجب أن ينهج الدعاة الإسلاميون فى جدالهم: إلتزام كامل بالموضوعية ورفق بالخصم لا يثير نفسه وكبرياءه، فيدفعه إلى العناد بالباطل حيث تأخذه العزة بالإثم ، ويلتبس باطله بكرامة نفسه ، فيدافع عنه دفاعه عنها ، وهذا ليس من الدعوة فى شيء ، لأن الدعوة إلى الله تعنى أن تنصرف جهود الداعية كلها لما هو فى صالح الدعوة لا إلى إرضاء حظ نفس الداعية من الرغبة الذاتية فى إظهار البراعة فى الجدل ، والقدرة على الإنتصار على مخالفه ، فذلك إن قصد إليه الداعية - إنما هو دعوة لحظ نفسه وهواها فى إظهار الغلبة على الناس ، ولو على حساب تفهم الخصم للدعوة ، وبدء قبوله لها .

وكان السلف الصالح فى دعوتهم إلى الله يراعون هذا فى كل ما يرونه من جدل مع خصوم الدعوة ، ويروى عن الإمام الشافعى - رضى الله عنه - أنه ما جادل إنسانا قط فود أن يغلبه فى الجدل ، وإنما ود لحسب أن يظهر الحق لكل منهما سواء .

ثانيا : السنة النبوية

والسنة النبوية تبين لنا أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يعلم الدعاة الذين يرسلهم إلى البلاد تعليما دقيقاً حتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى الناس على أكمل وجه ، ولأن الواحد منهم كان يقوم بكافة الأمور الدينية ، فهو يعلم المسلمين الحلال والحرام ، ويقضى بينهم ، ويبشر بدين الله، ويدعو إليه من لم يسلم ، ويدفع عن الإسلام شبهات الكائدين ، ويناضل فى ذلك كله عن دين الله ، ولعل فى توجيهاته صلى الله عليه وسلم ، ونصائحه التى زود بها معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى عندما بعثهما إلى اليمن ما يكفى دليلا على أنه صلى الله عليه وسلم كان يعد الدعاة إعدادا جيداً ، ثم يكلفهم بتحمل هذه المهمة الشاقة ، وسوف نوجز هـــذه التوصيات والنصائح فيما يلى :

أولا : أنه عليه الصلاة والسلام زود معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ بالمنهج التشريعى الصحيح الذى ينبغى أن يعرفه الداعية الذى يتعرض للإفتاء والقضاء والإستفسار عن الحلال والحرام حتى يتكلم فى دين الله عن علم صحيح فيهتدى ويهدى ، وقد روى معاذ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تقضى إذا عرض لك القضاء ؟ .

قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ .

قال : فبسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله ولا فى كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأى ولا آلو (أى لا أقصر فى الإجتهاد) فضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدره ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم(١) .

وقد اعتبرت هذه الخطة التشريعية ـ التى أقرها النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأصبحت من سنته ـ أساس الجهود التشريعية فى مجال علم الفقه وأصوله ، وأصبح لا يسع مسلماً إلا إتباعها .

وقد سبق أن الداعى لدين الله يجب أن يدعو إليه بالحكمة ، ومن مقتضياتها العلم بما ينبغى ، والإتقان لما يعرض له الإنسان من أمور ، فهذا التعليم داخل فى مقتضيات المنهج القرآنى فى عمومه ، كما أنه تطبيق للدعوة العامة إلى العلم والمعرفة ، ومن أولى بتحصيل العلم اللازم من الدعاة إلى دين الله المعرفين به ، والداعين إليه .

وهذا كله يؤكد ما تقدم ذكره فى هذا المبحث من أنه لا ينبغى للداعية أن يعرض للكلام فى شيء إلا وهو يحسن أسبابه جيداً ، ولهذا إهتم الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ بتلقين معاذ منهج التشريع والحكم ومعرفه الحلال والحرام .

ومن هذا يستفيد الدعاة درساها ما لتكون دعوتهم ناجحة وهو :

---

(١) سنن أبى داود : كتاب الأقضية .

الإعداد أو التحضير

وخير طريق للإعداد أن يعمد الداعية إلى الموضوع الذى يقتضيه واقعه الذى يعيش فيه محاولا الكشف عما يتضمنه مسلطاً الأضواء عليه حتى يتبينه المستمعون ، وأن يحاول تقسيمه إلى أجزاء متصلة بعضها ببعض ، كما يجب أن يكون أسلوبه سهلا واضحاً لا يستعلى على العامة ، ولا يتبذله الخاصة ، ثم ينظر فيما ورد فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عن الموضوع الذى يريد التحدث فيه ، فيجيد حفظها وفهمها ، ثم يأخذ فى إلقاء موضوعه ، فينفر من شر يراه فى مجتمعه موجودا ، أو يحث على خير ، أو مشروع مهم ، أو خلق فاضل مبينا الآثار والنتائج لكل ما يقول .

وعلى الداعية أن يختار موضوعه فى جو هادىء بحيث لا يحول بينه وبين حديث النفس أى حائل ، كما ينبغى أن يكون فارغا من الشواغل النفسية ، مخففا فى طعامه وشرابه ، فقد قيل : البطنة تذهب الفطنه ، وأن يكون فطنا ، خفيف الروح ، سريع الخاطر ، ولتكن كلماته جامعة ، إذ المعروف أن الكلمات التى تتألف منها الجمل ، ويبين فيها المتحدث عمله الفنى كالأحجار فى يد البناء والصخور فى محفر الرسام ، فالداعية يستطيع بمواهبه وسعة حيلته أن يخلق من كلماته صورا عدة ليمثل العواطف المختلفة تمثيلا كاملا ، قال القلقشندى ، إن الألفاظ من المعانى بمنزلة الثياب من الأبدان ، فالوجه الصبيح يزداد حسنا بالثياب الفاخرة ، والقبيح يزول عنه بعض القبح ، كما

أن الجسن ينقص حسنه برثاثة ثيابه ، وعدم بهجة ملبسه ، والقبيح يزداد قبحا إلى قبحه .

فإذا كتب المتحدث الموضوع فإن شاء حفظه وألقاه ، وإن شاء ذكر مضمونه ، وليحذر أن يقرأ على الناس من ورقه ، ولابأس أن يضمن حديثه بمنثور الحكم ، والملح التاريخية ، والفكاهات الأدبية فمثلا من الحكم النثرية قول الإمام الشافعي ـ رضى الله عنه ـ أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب فى موده من لا ينفعه ، ومدح من لا يعرفه .

وقوله أيضاً : أظلم الناس لنفسه اللئم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معاوفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوى الفضل .

أمور تعيب الدعاة

هناك ما قد يعوق فى الدعاة سهولة المخرج وسلامة النطق بالحروف مثل : —

(أ) اللجلجة : وهى التردد فى الكلام .

(ب) الفافأة : وهى ترديد الفاء والإكثار منها فى الكلام .

(ج) التمتمة : وهى الحديث الذى يردد فيه صاحبه التاء .

(د) اللثغ ، أو اللثغة : وكلتاهما تعنى تحول اللسان من السين إلى الثاء ، أو من الراء إلى الغين ، أو اللام ، أو الياء .

(هـ) اللفف : وهو العى والبطء فى الكلام ، وأن يملأ لسان المتكلم فمه فلا يكاد يبين ما يقوله من الكلام .

(و) الحبسة : وهى تعذر الكلام عند إرادته .

(ز) الحكلة : وهى العجمة فى الكلام (١) .

وهناك عيوب قد تصاحب الإنسان منذ طفولته نتيجة وراثة ، أو مرض أو سوء محاكاة ، أو تعجل فى النطق ، أو خجل : وإن كان فى الإمكان

(١) أورد الجاحظ هذه الأمور مفصلة فى كتاب البيان والتبيين الجزء الأول .

معالجتها مثل اللثغ ، وهي منتشرة في كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم ولكنها بالجهد والمثابرة قد تزول ، ولقد كان واصل بن عطاء ألثغ فأحسن اللثغ ، وهو شيخ من شيوخ المعتزلة ، وله رأي يدعو إليه ، ويذيعه ، ويدافع عنه ، ويقارع الأبطال بالحجج الطوال ، وكان ذلك يقتضيه بيانا سليما ، وسهولة مخرج ، وجهارة منطق ، وتكوين حروف ، وإقامة وزن ، فعمد إلى الراء فأسقطها من كلامه ، وأبعدها من منطقه ، ولم يزل يكابد ذلك ويغالبه حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل ، ومن أمثلة مجافاته للراء قوله في بشار بن برد وقد هجاه ، فقال واصل : أما لهذا الأعمى الملحد المشنف (١) المكنى بأبي معاذ من يقتله ، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية (٢) لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ويقتله في جوف منزله ، وفي يوم حفله (٣) .

فنجده لم ينطق بكلمة بشار ، أو ابن برد ، أو غيرها من الألفاظ التي توجد فيها الراء ، وذلك لايتم إلا إذا كان لدى المتحدث ثروة لغوية كبيرة .

(ح) الحصر أو الرتج ، قد يعتري الداعية الحصر فيبرد جسمه ، وتخور

---

(٢) المشنف : وهو الذي لبس الشنف وهو القرط في أعلى الأذن .

(٢) الغالية أي المنصورية والمغيرية ، وهما فرقتان من غلاة الشيعة .

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦

قوته ، ويتصبب عرقه ، وتدور رأسه ، ويشحب لونه ، وتسرع ضربات قلبه ، وربما يعتريه ذلك وهو على المنبر ، أو أثناء خطابة فى مناسبة ، أو رجفة تصيبه بسبب رهبة الموقف ، أو كثرة الجمهور ، رووا أن عبد ربه اليشكرى كان عاملا على المدائن ، فصعد المنبر ليخطب الجمعة ، فحمد الله ، ثم أرتج عليه ، فسكت ثم قال : والله إنى لأكون فى بيتى فتجيئ على لسانى ألف كلمة ، فإذا قمت على أعوادكم هذه جاء الشيطان فمحاها من صدرى ، ولقد كنت أحب يوم الجمعة فصرت أبغضه وما ذلك إلا لخطبكم (١) .

وقد يحصر الداعية مرة فيهجر من بعدها المواقف والمحافل ، ويخجل من لقاء الجماهير ، ولكن الواجب عليه أن يعتبر بنجاحه سلفا ، ويتسلح بثقته الكاملة فى نفسه ، وبتقدير الجماهير له ، كما أن عليه أن يجيد التخلص من الحصر إن وقع له وذلك بكلمة عاجلة ، أو جملة . مؤثرة ، وقد أرتج سيدنا عثمان - رضى الله عنه - فى أول خطبة له فقال : أيها الناس إنه أول مركب صعب ، وإن أعش تأتيكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسرا (٢) .

وصعد ثابت بن قطنة منبر سجستان يوم الجمعة ، فرام الكلام فتعذر عليه وحصر ، فنزل وهو يقول :

---

(١) جمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٣٥٤ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٢١ .

فإلا أكن فيكم خطيب فإننى   يسينى إذا جد الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلتها على المنبر لكنت أخطب الناس (١) .

والمتحدث إذ لم يحسن التخلص كان مثار للسخرية ، وربما تعرض للإيذاء من المستمعين .

(ط) الإستعانة : وقد تكون بالوسائل التى تفصح عن المراد إذا لم يكن المتحدث واضحا فى الكلام مثل قوله : يا هذا ، واسمع منى ، وأفهم عنى ، وما شاكل ذلك ، فهذه كلها علل وفساد ينبغى على الدعاة أن يتحاشوها حتى يكون لكلامهم الأثر الفعال فى قلوب الناس .

ثانياً : ثم إنه صلى الله عليه وسلم أوصى معاذا وأبا موسى الأشعرى .

فقال لهما : يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا .

وهذا أمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتيسير على الناس ، وإسقاط المشقه عنهم ، وتبيين أن الله سبحانه ما جعل الدين ليعنتنا ، أو يشق علينا به إنما هو كما قال عز وجل : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢) .

وقوله سبحانه « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٣) .

فينبغى أن يحرص الداعية على أن يبين للناس ما فى الدين من يسر ، وما فى التمسك به من خير لهم فى الدنيا والآخرة ، وألا يعسر عليهم الأمور

---

(١) السابق ج ٣ ص ٣٥١ .   (٢) البقرة : ١٨٥ .   (٣) المائدة : ٦ .

بالتخويف المتصل الذى لا يترك لهم فرصة يلتقطون أنفاسهم ملاحقتهم .

وعلى الدعاة إذا تعددوا فى مكان واحد أن يظهروا أمام الآخرين بأفضل مظهر من التطاوع فى الأمور كلها ، والاجتماع على قلب رجل واحد . والتوافق فى الأهداف ، والتنسيق فى الجهود حتى تتآزر ، فيعود ذلك على الدعوة ورجالها بالفلاح والنجاح ، وليعلم الدعاة إلى الله أن أخطر ما يسيء إلى الدعوة أمام الناس ما يظهر عليه بعضهم أحيانا من التنافر والتنافس فيما بينهم ، وعلاج ذلك أن يؤمروا عليهم واحدا منهم يرضونه ويطيعونه .

ويأتى بعد ذلك سؤال هو : ما حدود التيسير على الناس فى هذا التوجيه النبوى . هل هو مايفهمه بعض ضعفاء الإيمان من الخروج على حدود الله قائلين : يا أخى الدين يسر لا عسر ، والنبى عليه الصلاة والسلام أمر بالتيسير ، فلا تعسروا علينا الأمور ؟..

والجواب الحاسم قد بينه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بقية هذا الحديث ، فإنه لما أمرهما بالتيسير على النحو السابق ، قال له أبو موسى : يا رسول الله إنا بأرض يصنع فيها شراب من العسل يقال له البتع ، وشراب من الشعير يقال له المزر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مسكر حرام » (١) .

وفى رواية أنه قال له : يا رسول الله أفتنا فى شرابين كنا نصنعهما باليمن البتع من العسل ينبذ حتى يشتد ، والمزر من الشعير والذرة ينبذ حتى يشتد؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أنهى عن كل مسكر .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الأدب .

فهذا هو حد التيسير الرفق بالناس فى الأمر كله فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه ، فإذا خرج عن مفهوم هذه الحدود لم يكن تيسيرا بالمفهوم الإسلامى ، وإنما يكون انفلاتا من الشريعة ، ومجاوزة لحدود الله لا ينبغى للداعية أن يقر أحدا عليها أبدا .

ولعل فى الحديث التالى ما يزيد الأمر وضوحا عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت . ما خير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنفسه فى شئ قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم بها لله (١) .

فنراه عليه الصلاة والسلام يحب الرفق فى كل شئ ، ويأمر دعاته بالتيسير على الناس فى كل شئ ، ولكن ذلك كله مشروط بألا يؤدى شئ من ذلك إلى الخروج عن حدود الله ، أو تحليل الحرام ، أو تحريم الحلال ، حتى ولو كان فى الإصلاح بين مسلمين متخاصمين ، لأن الصلح جائز إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا فهو ممنوع ، (٢) لأنه إن حدث شئ من ذلك لا يكون من الدعوة فى شئ .

ومن تطبيقه صلى الله عليه وسلم للرفق والتيسير فيما لا يؤدى إلى انتهاك حرمات الله ما رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ من أن أعرابيا بال فى

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الأدب .

(٢) انظر رسالة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه فى القضاء ، تاريخ الأمم الإسلامية ـ جـ ٢ ص ٩ .

المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: دعوه وأهر يقوا على بوله ذنوبا من ماء، أو سجلا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين (١).

فمجال التيسير المأمور به فى هذه التوجيهات إنما هو أن يبين الداعية ما فى الإسلام من رخص كإباحة الصلاة للقاعد الذى لا يستطيع القيام، وجمع الصلاة وقصرها للمسافر، وإفطار المريض والمسافر فى رمضان، وإسقاط الصلاة والصيام عن المرأة عند حيضها ونفاسها، ثم تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة، وكون التكليفات الشرعية فى حدود الطاقة كما فى قوله سبحانه «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» (٢) وكون الحدود تدرأ بالشبهات، ورفع القلم عن الصبى والنائم والمغمى عليه والمجنون حتى يبلغ الصبى، ويصحو النائم، ويشفى المجنون، ويفيق المغمى عليه، ورفع الخطأ والنسيان ومايستكره عليه عن هذه الأمة، وقبول الله للتوبة النصوح من العبد مهما عظم ذنبه إلى آخر ما فى الإسلام من تيسيرات تدور فى نطاق ما شرعه الله، وتجاوز هذه الحدود لا يدخل فى باب التيسير بحال.

ثالثاً. وأيضاً يروى الإمام مالك عن معاذ بن جبل قوله آخر ما أوصانى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين وضعت رجلى فى الغرز (٣) «أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل» (٤).

وهذه وصية جامعة لمعان كثيرة تؤكد ما سبق أن تقرر فى التوجيهات

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الأدب.
(٢) البقرة : ٢٨٦ :
(٣) الغرز هو ركاب الجمل، بعنى وقد تأهب للرحيل.
(٤) الموطأ : باب حسن الخلق :

القرآنية من الرفق بالناس ، والموعظة الحسنة ، والجدال الأحسن ، والعفو عنهم ، والتجاوز عن إساءتهم متى كان ذلك فى مصلحة الدعوة ، وعدم السخرية بهم ، أو ازدرائهم ، أو اللجوء إلى السب والشتم فى معاملتهم ، وكل ما يدخل فى باب الخلق الحسن .

ولكى يتبين الداعية الإسلامى قيمة هذا التوجيه نسوق إليه بعض النصوص النبوية ؛ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . (١) .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ما من شيء فى الميزان أثقل من حسن الخلق (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ، وإن كان محقا ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه . (٤) .

وقال عليه الصلاة والسلام : إتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة

---

(١) رواه ابن ماجة .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه أبو داود .
(٤) رواه أبو داود .

تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن [١] .

إلى غير ذلك من الأحاديث التى تجعل ثمرة الدين حسن الخلق ، وتبين أن ذلك بالنسبة للداعية الإسلامى غاية يريد أن يهدى إليها الناس ، ونهج يلتزمه ولا يخرج عنه فى قليل أو كثير ، والله أعلم .

(١) الاذكار للامام النووى ص ٣٦٦ .

المبحث الثالث

أهم وسائل الدعوة الإسلامية

كل دعوة لابد لها من وسائل تبلغ بواسطتها إلى أسماع المدعوين وقلوبهم والدعوة الإسلامية توفر لها من الوسائل التى يمكن التبليغ بها إلى جميع البشر ، وأهم هذه الوسائل هى : الخطابة ، الدرس ، الندوة .

وسنشرح كل واحدة من هذه الثلاثة على حدة :

أولا ـ الخطبة المنبرية

لمحة تاريخية عامة :

كل دعوة دينية أو سياسية تحتاج إلى ألسنة تؤيدها ، ويستتبع ذلك وجود ألسنة أخرى تعارضها ، ولقد كان ظهور الإسلام من أهم الأحداث ذات الشأن والخطر ، تلك الأحداث التى أطلقت الألسن من عقالها ، وأثارت الخطابة من مكامنها ، ومنحتها قوة فوق ما كانت عليه فى جاهليتها ولقد ابتدأ دور الخطابة الإسلامية بظهور الرسول عليه الصلاة والسلام خطيباً غير شاعر ، وأول موقف للرسول عليه الصلاة والسلام خطيباً كان

حين نزل عليه قول الله تعالى : «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (١) وقد بينت ذلك بالتفصيل فى المبحث الأول .

كما كان العمل الأكبر له عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ القرآن الكريم هو الخطابة ، ثم ورثها من بعده الخلفاء والأمراء ومن بعدهم حتى ورثها خلفاء بنى أمية وعمالهم إلا قليلا ممن أترفوا ، فعجزوا عن آدائها وكانوا يستخلفون فيها .

وكان للخطباء من القرآن والسنة فى هذا العصر والاقتباس منهما مدد لا ينفد ، ومعين لا ينضب ، وحين انقسمت الأمة الإسلامية بعد مقتل عثمان رضى الله عنه إلى فرقتين : عراقية وعلى رأسها على ـ كرم الله وجهه ـ وشامية على رأسها معاوية رضى الله عنه ظهر فى الفرقتين خطباء لا يشق لهم غبار ، وحين انقسمت كل فرقة من الفرقتين إلى أقسام كان لكل قسم خطباؤه الأمر الذى علا فيه سهم الخطابة والخطباء .

ومن خطباء هذا العصر الخلفاء الراشدون ، وكثير من الصحابة والتابعين كمعاوية ، وزياد بن أبى سفيان ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وعمر ابن عبد العزيز وغيرهم .

والخطبة ـ كما قرر المشتغلون بفن الخطابة ـ تتنوع بتنوع الغرض منها ، فقد تكون سياسية إذا كانت تستهدف شأناً من شئون الأمة كالخطب التى

---

(١) الحجر : ٩٤

تلقى فى البرلمانات أو المعارك الإنتخابية ، أو المؤتمرات الدولية ، وقد تكون قضائية كالتى تكون فى ساحة القضاء لإقرار حق ، أو دفع ظلم ، وقد تكون حربية كالتى تكون من القائد لجنده يستنفرهم لملاقاة عدوهم ، أو يشحذ عزائمهم ، ويستحث هممهم لردعه ودفع عدوانه والتغلب عليه ، وقد تكون حفلية كالتى تلقى فى المحافل للتكريم ، أو التأبين ، أو فى تهنئة لنعمة ، أو فى علاج مشكلة إجتماعية ، أو الدعوة إلى مشروع يفيد الأمة ، ويدعم كيانها وقد تكون دينية وهى التى تعتمد على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتحبب إلى الناس الخير ، وتبغض إليهم الشر ، وتوجههم إلى خشية الله وحبه وتقواه والتقرب منه .

وحين نتحدث عن الخطبة الدينية نرى أنها إما أن تكون منبرية كالخطبة لصلاة الجمعة أو العيدين ، وإما أن تكون فى مجتمع يراد تبصيره بشأن من شئون الدين كتلك التى تلقى فى المناسبات الدينية العامة أو الخاصة .

والذى يعنينا هنا هو الخطبة المنبرية باعتبارها وسيلة فعالة من وسائل الدعوة .

والخطبة المنبرية فى ظل الدين الإسلامى قد عرفت منذ أقيمت صلاة الجمعة ، وذلك يدعونا إلى أن نعرف تاريخها ، ومتى فرضت ، وفيما يلى بيان ذلك :

تاريخها : لقد كان لكل أمة من الأمم يوم يحددون به بدأ الأسبوع ونهايته وجاءت الأمة الإسلامية ، وكان لا بد لها من أن تتميز بشخصية متكاملة فى

كل ما يهمها فى دنياها وآخرتها ، وكان من فضل الله أن هداها إلى يومها الذى يجدد بدأ الأسبوع ، وكان يوم الجمعة ، فقد روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها الرسول وقبل أن تنزل الجمعة (أى سورتها) ، قالت الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه كل أسبوع ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلم فلنجعل يوماً نجمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره ، فجعلوه يوم العروبة ، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة ، فصلى بهم يومئذ ركعتين ، وذكرهم ، فسموا الجمعة حين اجتمعوا إليه ، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها ، وأنزل الله فى ذلك بعد : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصـــلاة من يوم الجمعة . . » الآية ، قال الحافظ : ورجاله ثقات ولو أنه مرسل ، وهذه أول جمعة فى الإسلام(١) .

وقد روى عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، وكان قائد أبيه بعد ماذهب بصره عن أبيه كعب - رضى الله عنهما - أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زارة قال : لأنه أول من جمع بنا فى هزم النبيت من حرة بنى بياضه(٢) ، قال كعب فى نقيع . يقال له نقيع الخضمات(٣) ، قلت : كم كنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلا(٤) .

وقال فيه : كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم النبى عليه الصلاة

---

(١) نيل الأوطار ج ٣ ص ٢٦٢

(٢) الهزم المطمئن من الأرض ، والنبيت موضع من حرة بنى بياضة ، وهى قرية على بعد ميل من المدينة ، وبنو بياضة بطن من الأنصار .

(٣) النقيع بالنون المهملة والخضمات موضع معروف بالمدينة .

(٤) رواه ابو داود وابن ماجة .

والسلام من مكة، ولقد كان صنيع أسعد بن زرارة بتوجيه من النبي عليه الصلاة والسلام فإن الجمعة فرضت على النبي وهو بمكة قبل الهجرة كما أخرجه الطبراني عن ابن عباس ، فلم يتمكن من أقامتها هناك من أجل الكفار ، فلما هاجر من هاجر من أصحابه إلى المدينة كتب إليهم يأمرهم أن يجمعوا ، فجمعوا على نحو ماتقدم فى حديث كعب بن مالك ، ولقد اتفق على أن عدتهم كانت أربعين رجلا ، وليس فيه مايدل على أن مادون الأربعين لا تنعقد بهم الجمعة ، وقد تقرر فى الأصول أن وقائع الأعيان لا يحتج بها على العموم(١)

فإن قيل : كيف يكتفى أسعد بن زرارة بركعتين ، وذلك إنما يكون بتوقيف لا باجتهاد ؟

فالجواب أن الصلاة فرضت أولا ركعتين ركعتين كما روى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وإنما زيدت فى صلاة الحضر بعد الهجرة إما بقليل أو بنحو عام(١) .

ويكون الاجتهاد فقط فى الخطبة قبل الصلاة ، ولا ضير فى تقديم حمد ووعظ قبل الركعتين ، كما أن حديث ابن سيرين المرسل يدل على أن الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالإجتهاد ، ولا يفوتنا أن فعل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك قد وافق صنيع أسعد وأقره .

---

(١) نيل الأوطار جـ ٣ ص ٢٦٢ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الصلاة .

أول جمعة صلاها الرسول

صلى الله عليه وسلم

ولما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أقام فى قباء فى بنى عمرو ابن عوف يوم الإثنين ويوم الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها بالمسجد الذى فى بطن الوادى ، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة قبل تأسيس مسجده ، ثم قام فيهم خطيباً ، وكانت أول خطبة خطبها الرسول صلى الله عليه وسلم أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس قدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ، فلينظرن يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يتقى بوجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله(١) .

وحفظ من خطبه أيضاً (الحمد لله نستعينه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . من يهد الله فلا مضل له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ٩٩

لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدى الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ، ولا يضر الله شيئا »(١) .

---

(١) المرجع السابق .

هديه عليه الصلاة والسلام فى خطبه

كان عليه الصلاة والسلام إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش ، يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ، ويقول : أما بعد ، وكان يقصر الخطبة ويطيل الصلاة . ويكثر الذكر . ويقصد الكلمات الجوامع ، وكان يقول : إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه وكان يعلم أصحابه فى خطبته قواعد الإسلام ، وشرائعه . ويأمرهم وينهاهم فى خطبته إذا عرض له أمر أو نهى . كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلى ركعتين . ونهى المتخطى رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس .

وكان يقطع صلاته للحاجة تعرض . أو السؤال من أحد من أصحابه . فيجيبه . ثم يعود إلى خطبته فيتمها . وكان ربما نزل عن المنبر للحاجة . ثم يعود فيتمها . كما نزل لأخذ الحسن والحسين رضى الله عنهما فأخذهما ثم رقى المنبر فأتم خطبته . وكان يأمرهم بمقتضى الحال فى خطبته . فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة . وحضهم عليها .

وكان يشير بأصبعه السبابة فى خطبته عند ذكر الله تعالى ودعائه .

وكان يستسقى بهم إذا قحط المطر فى خطبته .

وكان يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس . فإذا اجتمعوا خرج إليهم .

ولم يكن يأخذ بيده سيفا ولا غيره . وإنما كان يعتمد على سيف أو عصا قبل أن يتخذ المنبر .

وكان يقوم فيخطب . ثم يجلس جلسة خفيفة . ثم يقوم فيخطب الثانية فإذا فرغ منها أخذ بلال فى الإقامة . وكان يأمر الناس بالدنو منه . ويأمرهم بالإنصات . ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه : أنصت فقد لغا . ويقول: من لغا فلا جمعة له . إلى غير ذلك من الآداب العظيمة التى ذكرها الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) الجزء الأول تحت عنوان : فصل فى هديه صلى الله عليه وسلم فى خطبه .

ثانياً ـ الدرس الدينى

التعريف به: يهدف الدرس الدينى إلى تبصير المسلمين فى موضوع يهمهم بما يجعلهم على بينة منه فى ضوء كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبأسلوب يتفق وحال المستمعين سواء كان آية ، أو حديثا نبويا ، أو سنة عملية .

خير الدروس

خير الدروس ما توفر فيه الآتى : ـ

(١) وقوعه موقع الحاجة من المستعمين .

(٢) ما ضربت فيه الأمثال ، وبينت الحكم ، وصدقه الحس ، ووافقه العقل .

(٣) ما كانت لغته مفهومة ، وسلك فيه المدرس طريقا يهز به مشاعر وعواطف سامعيه ، ويدفعهم إلى العمل .

(٤) أن يتخلله ما يروح عن النفس ، ويذهب بالسآمة والملل ، ولا يغض من قيمة الدعوة والداعية .

(٥) أن يكون مخلصا . واعيا لما يقول ، عامداً إلى لب الموضوع دون القشور والمقدمات البعيدة .

(٦) أن يتجنب فى دروسه ما يثير الجدل والمناقشة ، وألا يسئل الناس على ما يقول شيئا ، فإن المرء لا يزال كريما على الناس ما ستغنى عن دنياهم .

(٧) أن يكون فى وعظه معتصما بالأناة ، والحلم ، والصبر ، قال تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة » ، وأن يمتثل القدوة الحسنة قال تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

إعداد الدرس الديني

درس الداعية يختلف عن درس الأستاذ فى المعهد أو المدرسة فيما يأتى : ـ

(١) الداعية يعنيه إظهار ما فى الدين من محاسن وفضائل ، ومحاولة ربط الدين بالحياة ، ولا يهمه بعد ذلك النظريات الرياضية أو الفلكية إلا بمقدار ما يوضح به درسه .

(٢) الدرس الدينى يهتم فيه الداعية بالرقائق فى الأمور التى ترقق القلوب والقواعد الكلية ، والمعانى العامة ، بخلاف المدرس فانه يعنى بالتفاصيل والجزئيات .

(٣) الدرس الدينى غالبا ما يتناول المتحدث فيه آية قرآنية ، أو حديثاً نبويا ، أو سنة تتبع ، ويقدم فى أسلوب سهل لا تعقيد فيه ولا إغراب .

(٤) المدرس الدينى جمهوره متفاوتون فى ثقافتهم ، ومداركهم ، وعليه أن يعد نفسه بما يشبع رغبة جمهوره على اختلاف المستويات .

كيفية إلقاء الدرس

وتتمثل فى الأمور الآتية :-

(١) على الداعية أن يتفقد مجتمعه ، وما يجرى فيه من تيارات وأحداث فيقدم أكثرها ضرراً ليكون موضوع درسه .

(٢) أن يفكر فيما يحيط بمجتمعه من أضرار خلقية وصحية ومالية فيحصيها ثم يحاول جمع ما ورد فى الكتاب والسنة عن موضوعه ، ثم يبدأ فى درسه ، ومثل هذا الترغيب فى فضيلة ، أو الحث على عمل ، أو مشروع خيرى ؛ بحيث يفكر ، ثم يستحضر الأدلة ، ثم يبدأ يتكلم .

(٣) أن يفكر فى جو هادىء ، وأن يعمد إلى المراجع الصحيحة ليأخذ منها المادة العلمية لدرسه ، وأن يطعم كلامه بالرقائق والعظات والعبر .

(٤) أن يقسم موضوعه إلى أقسام حتى يستطيع أن يلم به ، وأن يراعى عند إعداد الدرس إستعداد السامعين ، فيخاطبهم على قدر أفهامهم .

(٥) أن يكون فى إلقائه رصينا هادئا متزنا ممثلا القدوة فى أفعاله وأقواله متحريا الأسلوب الذى يناسب جماهيره .

أغراض الدروس

(١) تفسير آية أو حديث أو شرح سنة عملية من سنن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

(٢) بيان حكم الله ـ سبحانه في حادث وقع ، أو جواب عن أمر مجهول ، أو تشخيص علاج لمرض نفسي ، أو خلقي .

(٣) حمل الناس على فعل الخير ، وتذكيرهم بالله ، وبالحق بما يرقق قلوبهم ، ويبعثهم على العمل .

(٤) الرغبة في صلاح حالهم في معاشهم ومعادهم .

ثالثاً ـ النـــدوة

وهى عبارة عن مجتمع يعالج فيه أكثر من واحد موضوعا خفيا لتوضيحه والكشف عن آثاره بالمشافهة .

إدارتها : لما كان الحديث فى الندوة يضم أكثر من واحد كان لابد من شخص له مقدرته العلمية ، وحسن التصرف ليوزع الموضوع بين المتحدثين والأسئلة إلى المتحدث الأقدر على الإجابة ، وفى الغالب يكون فى الندوة ثلاثة متحدثون ، ولهم مستوى علمى معين ، أو متشابه ، أو مختلف ، ولابد أن يوجد لدى المتحدثين قدرة علمية تفوق المستمعين ، وشخصية تحملهم على إحترامهم .

حديث : وهو ما يدور بين المتحدثين ، وعلى المتحدث منهم أن يراعى مقتضى الحال ، وأن يختار الأسلوب الذى يناسب المستمعين .

موضوعاتها : يجب أن تكون الندوة فى موضوع معين يوحى به واقع المجتمع ، أو يكون إستجابة لنداء الواقع الذى يجب أن يعيش فيه هذا المجتمع .

الحاجة إليها : تتبين فى الآتى : ـ

(١) أهمية الموضوع بحيث يحتاج إلى أكثر من عالم يتحدث فيه حديثاً يشفعه بالحجة والبرهان .

(٢) هى السبيل إلى استثارة العقول . والقضاء على الجمود الفكرى ، واتساع آفاق المستمعين - ووقوفهم على دقائق الموضوع فى أسلوب سهل ، وبطريقة مشوقة .

(٣) قد تكون الندوة هى الوسيلة للكشف عن وجه الحق فى موضوع تشعبت فيه الآراء ، واختلفت فيه الأفكار بحيث تنتهى الندوة وقد اتفق المجتمعون على رأى واحد .

(٤) إذا اتفق الناس على رأى موحد إستتبع ذلك صرف الهمم إلى التفكير فى النافع ، وتوجيه الطاقات كلها إلى ما فيه خير الأمة ، وتأكيد الوحدة الفكرية التى هى سبيل الوحدة العامة .

(٥) الندوة فيها تأكيد روح التعاون بين المتحدثين بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين المستمعين .

ويدخل تحت دائرة الندوة ما يسمى بـ :

المجلس العلمى

قد تكون الندوة أشبه شىء بالمجلس العلمى إذا كان الحديث قاصرا على عدد معين من المتحدثين ، والباقى مستمعون .

أما حين يكون المجلس بحيث تثار فيه قضية علمية ، أو موضوع دينى ويقوم أقدر الحاضرين بالحديث وحده ، فإنه يكون أقرب إلى الدرس .

أما إذا كان الجميع بحيث يتفاوتون فى المستوى الفكرى والثقافى ، وكل يدلى برأيه فى صراحة ، وبروح لا تعرف المواربة بقصد الإجتماع على رأى موحد فى الموضوع ، فإن ذلك مما يمكن المجلس أن يكون المجلس العلمى .

ومن ذلك نرى أن المجلس العلمى غالبا ما يكون موضوعه نظرية علمية ، ومنه ما يكون متصلا بالأدب إذا كانت المناقشة فى قضية أدبية من حيث المرامى والأغراض أو المقاصد ، وقد يكون الموضوع آية ، أو حديث ، أو مسألة فقهية تدور المناقشة فيه حول ما يتصل بها ، فيكون المجلس دينيا

والمجلس كالندوة له رئيس يمكن أن يحكم المناقشة ، وينظمها حتى يلتقى الجميع على رأى بعينه فى موضوع المجلس ، ويكون انتهاء الجميع إلى هذا الرأى انتهاء المجلس . والله أعلم .

المبحث الرابع

النبـــوة

الوحى والنبوة والرسالة وحاجة البشر إليها : —

(أ) الوحى فى اللغة هو : كلامك للغير بما تخفيه عن غيره، وقيل : هو الإشارة السريعة، وهذا يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ؛ وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة بعض الجوارح ؛ وبالكتابة ؛ وقد حمل على ذلك قول الله ـ تعالى ـ عن زكريا « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً »(١) أى أشار إليهم ولم يتكلم ؛ إشارة خفيفة سريعة(٢).

والقول الجامع فى معنى الوحى لغة : أنه الإعلام الخفى السريع الخاص بما يوجه إلى شخص ما بحيث يخفى على غيره.

وشرعاً : إعلام الله ـ تعالى ـ لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أو هو : عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله ـ تعـــالى ـ

---

(١) مريم : ١١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١٣ ، وكتاب الوحى المحمدى .

بواسطة ، أو بغير واسطة ؛ والأول بصوت يتمثل لسمعه، أو بغير صوت؛ ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس ؛ وتنساق إلى مايطلب من غير شعور منها من أين أتى؛ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور .

وهذا التعريف يشمل أنواع الوحى الثلاثة الواردة فى قوله تعالى «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه على حكيم» (١).

فالوحى هنا إلقاء المعنى فى القلب ؛ والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لايراه ؛ كما سمع موسى ـ عليه السلام ـ النداء من وراء الشجرة ؛ وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلا بصورة رجل ؛ أو غير متمثل ؛ ويسمعه منه ؛ أو يعيه بقلبه .

(ب) والنبىء فى اللغة : وصف من النبأ ؛ وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم ؛ والنبي بالتشديد أكثر استعمالا أبدلت الهمزة فيه ياء؛ أو هو من النبوة وهى الرفعة والشرف ؛ ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذى يخبر بشىء من أمور الغيب المستقبلة

وفى الشرع هو : من أوحى الله إليه وحياً ؛ فإن أمره بتبليغه كان

---

(١) الشورى : ٥١ .

رسولا ؛ فكل رسول نبي ؛ وليس كل نبي رسول ؛ وقول الله ـ تعالى ـ «وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (١) يدل على انقطاع النبوة والرسالة معاً بعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ فكل من ادعى ؛ أو يدعى الوحى الشرعى من الله ـ تعالى ـ بعده فهو كذاب مضل وقد ادعى النبوة كثير مثل مسيلمة الكذاب وغيره فظهر كذبهم جميعاً .

(١) الأحزاب: ٤٠

وقوع الوحى والرسالة

والدليل على وقوع رسالة أى نبى وصدقه فيما يحكى ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان .

وأما الغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما جاء فى علم « مصطلح الحديث » رواية خبر عن جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة ، وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع ذلك كله إلى العدد ، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر .

ومن الأنبياء ما ستوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـ وما جاء به الخبر عنهم أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا ، ولا بالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه ، وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس ، وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ما تقدم ومع استحكام السلطان ووفرة المال والاستعلاء بما كسب من العلم لغيرهم قام هؤلاء الرسل بالدعوة إلى الله تعالى مبينين للناس أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للبشر وأقاموا من الأدلة على صدق دعواهم ما تصاغرت دونه قوة المعارضة . ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغزيرة فى الفطر . وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به .

وأما باقى الرسل ممن يجب علينا الإيمان بهم بالتفصيل ، وهم الذين صرح القرآن برسالتهم ، وذكرهم بأسمائهم ، وجمعهم الناظم فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا

ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

فيكفى فى إثبات نبوتهم إثبات رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم ، وهو الصادق فى كل ما بلغ به .

(ج) وأما وجه حاجة البشر إلى هداية الأنبياء عليهم السلام فهو أن موضوع رسالتهم المقصود بالذات يتركز فى أمور ثلاثة لا تستقل معارفهم المكتسبة بحواسهم وعقولهم بها ، ولا يذعنون فيها إلا لأمر ربهم وخالقهم.

أولها : الإيمان بالغيب : ورأسه توحيد الله وصفاته وآياته الدالة على كماله وتنزهه عن النقص ، وما يجب من عبادته وشكره وذكره الذى هو أعلى ما تتزكى به النفس وتصل إلى الكمال المستعدة له فطرتها ، ويليه الإيمان بملائكته وما يكلفون به من الوحى والنظام فى الخلق والأمر . ويجب الوقوف فى ذلك كله عند ما ورد به النص .

وما أخبر به الأنبياء من أمر عالم الغيب الجن والشياطين ، وأن ما يجده الناس فى أنفسهم من خواطر السوء ، وتقوية دواعى الشر والباطل فهو من وسوسة الشياطين ، وحكمة إعلامهم بذلك إرشادهم إلى محاسبة أنفسهم على خواطرها ، والتمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر . فذلك أكبر معين على تربية النفس وتزكيتها .

والمشهور أن أقوى البشر عقلا ورأياً فى شئون العالم رجال السياسة فى الدول الغربية ، وإننا نجد غاية سياستهم هى تسخير ثروة شعوبهم ، ونتائج علومها وفنونها لعداوة بعضهم لبعض ، وإعدادها للتقتيل والتدمير ؛ وهذه هى السياسة الشيطانية التى بينها القرآن الكريم فى قوله تعالى «تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(١) .

ثانيها : مايجب اعتقاده من البعث بعد الموت والحساب والجزاء على الإيمان والأعمال ، وهو أكبر البواعث بعد الإيمان بالله ومعرفته على اتباع الحق ، وإقامة العدل ، والتسابق فى أعمال البر والخير ، والبعد عن أضدادها.

ثالثها: وضع حدود وأصول الأعمال التشريعية المشار إليها لامجال للآراء والأهواء فيها ، لتكون جامعة للكلمة ، مانعة من التفرقة ، متبعة فى السر والعلانية .

والنتيجة أن تهذيب البشر بالدين مبنى على الإيمان بالغيب ، والوقوف به عند خبر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولا يمكن تهذيبهم بالعلوم المادية الكسبية وحدها .

فإن قيل : إن الإيمان بالغيب ، وبوجود الله ـ عز وجل ـ أمر غريزى

---

(١) النحل : ٦٣ ، ٦٤ .

فى الفطرة البشرية ، أو إلهام من إلهاماتها يلقى فى روع أفرادها عنـــد نمو إدراكهم ، وأن بعض الحكماء والمفكرين قد ارتقوا فى معارفهم العقلية إلى حيث أقاموا الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى وعلمه وحكمته ووجوب تعظيمه وشكره وعبادته كما أن بعضهم قرر بقاء النفس بعد الموت ؛ وخلودها فى نعيم مقيم ؛ أو عذاب أليم ؛ ووضعوا للناس أصول الفضائل والتشريعات والآداب التى بها صلاح الإنسانية ؛ وروابط الإجتماع ؟ .

والجواب : نعم لكل ذلك أصل يثبته التاريخ الماضى ؛ ويشهده العصر الحاضر ؛ ولكن بين هداية الأنبياء وحكمة الحكماء فروقاً فى مصدر كل منهما ؛ وفى الثقة بصحته ؛ وفى الإذعان بحقيقته؛ وفى ماتثيره فى نفوس جميع المخاطبين.

فحكمة الحكماء وعلومهم آراء بشرية ناقصة ؛ وظنون لاتبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود مجهول ؛ وهى عرضة للتخطئة والخلاف ؛ ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس ؛ وليس كل من يفهمها يقبلها ؛ وكل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته ؛ إذ لاسلطان لها على وجدان العالم بهـا ؛ فلا يكون لها تأثير الإيمان ولا تصل إلى درجة التعبد والإذعان لأن النوع البشرى يأبى بطبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله فى البشرية وإن فاقه فى علمه وحكمته وإنما يدين لمن يعتقد أن له سلطاناً غيبياً عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه .

وخير مثال على ذلك مارُوى أنه كان للفيلسوف ابن سينا خادم متعلم ؛

وكان هذا الخادم معجب بعلوم سيده وفلسفته وكان يعجب منه كيف يدين بملة محمد – صلى الله عليه وسلم – ويتبعه وهو – فى نظره – أعلم منه وأرقى . وكان يكاشفه بذلك فيعرض عنه. أو يوبخه . فاتفق أن كانا فى مدينة أصفهان فى ليلة شديدة البرد . كثيرة الثلج . فأيقظ الرئيس خادمه فى وقت السحر . وطلب منه ماء ليتوضأ به . فاعتذر بشدة البرد . وبقاء الليل . ثم أيقظه الرئيس فى وقت أذان الصبح . وطلب منه الماء . فاعتذر بشدة البرد حتى إذا قال المؤذن : أشهد أن محمدا رسول الله . قال الرئيس لخادمه : إسمع ماذا يقول المؤذن ؟ قال : إنه يقول : أشهد أن محمدا رسول الله . قال الرئيس : الآن قد آن لى أن أبين لك ضلالك القديم . أنت خادمى لا عمل لك غير خدمتى . وإنك أشد الناس إعجابا بى : وإجلالا وتعظيما لى . حتى إنك تفضلنى على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتنكر على أن أومن به وأتبعه وأنت على هذا كله تخالف أمرى فى أهون خدمة أطلبها منك فى داخل الدار معتذرا بشدة البرد . وأن هذا المؤذن الفارسى يخرج من بيته قبل الفجر . ويصعد هذه المنارة وهى أشد مكان فى البلد بردا . حتى إذا لاح له الفجر أشاد فى أذانه بذكر محمد العربى بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته . إيمانا وإذعانا . وتعبدا واحتسابا .

فمن تدبر هذه القصة ظهر له الفرق الشاسع بين سلطان النبوة على الناس. وسلطان العلم والفلسفة .

فمن أعظم مزايا هداية الوحى الدينية على العلم الكسبي أن جميع طبقات المؤمنين بها يذعنون لها بالوازع النفسى التعبدى . فبذلك تكون عامة ثابتة لا مجال للخلاف . والتفرق فيها مادام الفهم لها صحيحاً ، والإيمان بها راسخ .

ما يجب وما يستحيل وما يجوز

فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام

وإذا كان إرسال الأنبياء إلى البشر إنما هو لأجل هدايتهم ، وتزكية نفوسهم بما تصلح به أحوالهم فى دنياهم ، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا وهى الحياة الآخرة ، فلايتم هذا الغرض ، ولا تتحقق هذه الحكمة إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلا لأن يقتدى بهم فى أعمالهم ، وسيرتهم ، والتزامهم بالشرائع والآداب التى يبلغونها عن ربهم ، ومن هنا قرر العلماء وجوب اتصافهم بالصفات الآتية : ـ

أولا : الصدق . وهو مطابقة خبرهم للواقع ولو بحسب اعتقادهم كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : كل ذلك لم يكن لما قال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ حين سلم من ركعتين .

ودليل وجوب صدقهم عليهم الصلاة والسلام أنهم لو لم يصدقوا للزم الكذب فى خبره تعالى ، لتصديقه تعالى لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله سبحانه : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى ، وتصديق الكاذب كذب ، وهو محال فى حقه تعالى ، فملزومه وهو عدم صدقهم محال ، وإذا استحال عدم صدقهم وجب صدقهم ، وهو المطلوب .

ثانياً : الأمانة : وهي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة ، أو خلاف الأولى ، فهم محفوظون ظاهرا من الزنا، وشرب الخمر ، والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر ، ومحفوظون باطنا من الحسد والكبر ، والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن، والمراد المنهى عنه ولو صورة فيشمل ما قبل النبوة ولو فى حال الصغر ، ولا يقع منهم مكروه ، ولا خلاف الأولى ، بل ولا مباح على وجه كونه مكروها ، أو خلاف الأولى ، أو مباح وإذا وقعت صورة ذلك فهو للتشريع فيصير واجبا ، أو مندوبا فى حقهم ، فأفعالهم صلوات الله وسلامه عليهم دائرة بين الواجب والمندوب :

ودليل وجوب الأمانة لهم - عليهم الصلاة والسلام - أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكنا مأمورين به ، لأن الله - تعالى - أمرنا باتباعهم فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيل ، وهو سبحانه لا يأمر بمحرم ولا مكروه ، ولا خلاف الأولى ، فلا تكون أفعالهم محرمة ولا مكروهة ولا خلاف الأولى .

ثالثاً : الفطانة : وهي التفطن والتيقظ لإلزام الخصوم ، وإبطال دعاويهم الباطلة .

والدليل على وجوب الفطانة لهم آيات كثيرة منها قوله تعالى ، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم» والإشارة عائدة إلى ما احتج به إبراهيم - عليه السلام على قومه من أول قوله تعالى « فلما جن عليه الليل» إلى قوله سبحانه «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

وقوله سبحانه ـ حكاية عن قوم نوح عليه السلام « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا » أى خاصمتنا فأطلت جدالنا ، أو أتيت بأنواعه .

وقوله تعالى ـ مخاطبا محمداً صلى الله عليه وسلم ـ « وجادلهم بالتى هى أحسن » أى بالطريق التى هى أحسن بحيث تشتمل على نوع إرفاق بهم .

ومن لم يكن فطنا لا يتمكن من إقامة الحجة ، ولا المجادلة .

قد يقال : هذه الآيات ليست واردة إلا فى بعضهم فلا تدل على ثبوت الفطانة لجميعهم ؟ .

والجواب عن ذلك أن ما ثبت لبعضهم من الكمال يثبت لغيره ، فتثبت الفطانة لجميعهم وإن لم يكونوا رسلا بل أنبياء فقط ، فاللائق بمنصب النبوة أن يكون عندهم من الفطانة ما يردون به الخصم على تقدير وقوع جدال منهم

رابعاً : التبليغ: بشرط أن يكون مما أمروا بتبليغه للخلق بخلاف ماأمروا بكتمانه ، وما خيروا فيه .

والدليل على وجوب تبليغهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أنهم لو كتموا شيئاً أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم ، لأن الله تعالى ـ أمرنا بالاقتداء بهم ، واللازم باطل ، لأن كاتم العلم ملعون ، ولو جاز عليهم كتمان شيء لكتم سيدنا محمد ـ الله عليه وسلم ـ قوله تعالى « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

وأصح تفسير لهذه الآية ما نقله من يعول عليه فى التفسير عن على بن الحسين من أن الله — تعالى — كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه ، فلما شكاها إليه زيد قال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها ، والله مبدى ذلك بطلاق زيدلها ، وتزويجها له صلى الله عليه وسلم ،

ومعنى الخشية إستحياؤه عليه الصلاه والسلام من الناس أن يقولوا تزوج زوجة ابنه ، أى من تبناه ، فعاتبه الله — سبحانه — على هذا الاستحياء لعلو مقامه .

ويستحيل فى حقهم عليهم الصلاة والسلام — ضد الصفات الأربعة الواجبة فى حقهم ، فضد الأمانة الخيانة ، وضد الصدق الكذب ، وضد الفطانة الغفلة وعدم الفطنة ، وضد التبليغ كتمان شىء مما أمروا بتبليغه .

ويجوز فى حقهم — عليهم الصلاة والسلام — الأكل والشرب والجماع للنساء فى الحل ، بأن كان بالملك ، أو بالنكاح فيجوز لهم الوطء بالملك ولو للأمة الكتابية بخلاف المجوسية ونحوها كالوثنية وخالف ابن العربى فى الأمة الكتابية معللا بأنه عليه الصلاة والسلام شريف عن أن يضع نطفته فى رحم كافرة وبأنها تكره صحبته وأما الأمة المسلمة فجائزة باتفاق ويجوز لهم الوطء بالنكاح لما عدا الكتابية والمجوسية وما عدا الأمة ولو مسلمة لأنها إنما تنكح لخوف العنت ولعدم الطول أى المهر وكل منهما منتف أما الأول فللعصمة وأما الثانى فإنهم واجدون للمهر على أنه يجوز للنبى أن يتزوج بدون مهر .

وكذلك لا يطئون نسائهم وهن صائمات صوما مشروعا، ولا معتكفات كذلك، ولا حائضات، ولا نفساء ولا محرمات، ولا يجوز عليهم الإحتلام لأنه من الشيطان.

وقد ورد: ماحتلم نبي قط، نعم إن كان مجرد فيضان ماء من غير تلاعب من الشيطان فلا مانع منه، ومثل ما تقدم سائر الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية كالمرض، ومنه الإغماء فيجوز عليهم وقيده الإمام أبو حامد الغزالى بغير الطويل، بخلاف الجنون قليله وكثيره فلا يجوز لأنه نقص، وكالجنون الجذام والبرص والعمى، وغير ذلك من الأمور المنفرة، فلم يعم نبي قط، ولم يثبت أن شعيباً كان ضريراً، وما كان بيعقوب كان حجابا على العين من تواصل الدموع، ولذلك لما جاءه البشير عاد بصيرا، وما كان بأيوب من البلاء إنما كان بين الجلد والعظم، فلم يكن منفرا، وما اشتهر فى القصة من الحكايات المنفرة فهى باطلة.

وأما السهو فممتنع عليهم فى الأخبار البلاغية، كقولهم: الجنة أعدت للمتقين، وعذاب القبر واجب، وهكذا، وغير البلاغية كقام زيد، وقعد عمرو، وهكذا، ويجوز عليهم السهو فى الأفعال البلاغية وغيرها، كالسهو فى الصلاة للتشريع، لكن لم يكن سهوهم ناشئا عن اشتغالهم بغير ربهم، ولذلك قال بعضهم:

يا سائلى عن رسول الله كيف سها ... والسهو من كل قلب غافل لاه

قد غاب عن كل شيء سره فسها ... عما سوى الله فالتعظيم لله

وأما النسيان فهو ممتنع فى البلاغات قبل تبليغها ، قولية كانت أو فعلية ، فالقولية كالجنة أعدت للمتقين ، والفعلية كصلاة الضحى إذا أمرهم الله بفعلها ليقتدى بهم فيها ، فلا يجوز نسيان كل منهما قبل تبليغ الأولى بالقول ، والثانية بالفعل ، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر من الله ـ تعالى ـ وأما نسيان الشيطان فمستحيل عليهم إذ ليس للشيطان عليهم سبيل ، وقول يوشع عليه السلام ـ « وما إنسانيه إلا الشيطان » تواضع منه ، أو قبل علمه بحال نفسه ، وإلا فقلبه معلق بربه دائما بشهادة قوله سبحانه : « ذلك ما كنا نبغى » ووسوسة الشيطان لآدم إنما كانت بتمثيل ظاهرى ، والممنوع لعبه ببواطنهم وبالجملة فيجوز على ظواهرهم ما يجوز على البشر مما لا يؤدى إلى نقص ، وأما بواطنهم فمنزهة عن ذلك متعلقة بربهم .

المعجزة

المعجزة لغة : مأخوذة من العجز ، وهو ضد القدرة .

وشرعا : أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى الذى هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة .

وقال السعد : هى أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعى النبوة عند تحدى المنكرين ، على وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثله .

وقد اعتبر المحققون فيها سبعة قيود :

الأول : أن تكون قولا ، أو فعـلا ، أو تركا ، فالأول كالقرآن ، والثانى كنبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم والثالث كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام وخرج بذلك الصفة القديمة ، كما إذا قال : آية صدقى كون الإله متصفاً بصفة الإختراع .

الثانى : أن تكون خارقة للعادة . وهى ماعتاده الناس واستمروا عليه مرة بعد أخرى ، وخرج بذلك غير الخارق ، كما إذا قال : آية صدقى طلوع الشمس من حيث تطلع ، وغروبها من حيث تغرب .

الثالث : أن تكون على يد مدعى النبوة أو الرسالة ، وخرج بذلك الكرامة ، وهى ما يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ، والمعونة ، وهى ما يظهر على يد العوام تخليصاً لهم من شدة ، والاستدراج . وهو ما يظهر على

يد فاسق خديعة ومكرا به ، والإهانة ، وهى ما يظهر على يده تكذيباً له ، كما وقع لمسيلمة الكذاب فإنه تفل فى عين أعور لتبرأ فعميت الصحيحة .

الرابع : أن تكون مقرونة بدعوى النبوة أو الرسالة حقيقة ، أو حكما بأن تأخرت بزمن يسير ، وخرج بذلك الإرهاص ، وهو ما كان قبل النبوة والرسالة تأسيساً لها كإظلال الغمام له صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ،

الخامس : أن تكون موافقة للدعوى ، وخرج بذلك المخالف لها ، كما إذا قال : آية صدقى إنفلاق البحر فانفلق الجبل .

السادس : أن لا تكون مكذبة له ، وخرج بذلك بذلك ما إذا كانت مكذبة له كما إذا قال : آية صدقى نطق هذا الجماد ، فنطق بأنه مفتر كذاب ، بخلاف ما لو قال : آية صدقى نطق هذا الإنسان الميت وإحياؤه ، فأحيى ونطق بأنه مفتر كذاب ، والفرق أن الجماد لا لأنه أمر إلهى ، والإنسان مختار فلا يعتبر تكذيبه لأنه ربما اختار الكفر على الإيمان .

السابع : أن تتعذر معارضته ، وخرج بذلك السحر ، ومنه الشعبذة وهى خفة فى اليد يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها كما يقع للحواة .

الثامن : أن لا تكون فى زمن نقض العادة ، كزمن طلوع الشمس من مغربها ، وخرج بذلك ما يقع من الدجال كأمره للسماء أن تمطر فتمطر ، وللأرض أن تنبت فتنبت(١) .

يقول الشيخ محمد عبده : فتى ظهرت المعجزة وهى مما لا يقدر عليه البشر

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص ٤٨ ، ٤٩

وقارن ظهورها دعوى النبوة ، علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده ، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة(١) .

إن الله تعالى ـ لم يؤيد رسله . بما أيديهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهتدى بها المستعد للهدايه ، وتحق بها كلمة العذاب على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة وذلك لا يكون إلا بإظهارها ، وما كان الأنبياء عليهم السلام يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير ما يؤيدهم به من الآيات الدالة على صدقهم فى دعوى الرسالة إلا لضرورة كالاستسقاء ، وكان خاتمهم صلى الله عليه وسلم يصبر هو وأهل بيته على المرض والجوع والعطش ، ولا يدعو لهم النبى عليه الصلاة والسلام بما يزيل ذلك إلا نادراً ، وقد سألته المرأة التى كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء ، فأرشدها إلى الصبر على مصيبتها وأن ذلك خير لها ، فشكت أنها تتكشف عند النوبه ، وسألته أن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها ، واستجاب الله دعائه .

وكان المشركون يقترحون على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتى لهم بآيات كونية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام فيجيبهم بما هو أصرح فى أن الآيات عند الله ، وهو القادر عليها دون الرسول . ومنه التعجب من طلبهم بقوله تعالى له « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا »(٢)

وفى معناه ما حكاه القرآن الكريم من جواب الرسل الأولين لأقوامهم

---

(١) رسالة التوحيد ص ٨٥ ، ٨٦

(٢) الإسراء : ٩٣

الذين يطالبونهم بمثل ذلك يقول الله تعالى : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (١) .

الفرق بين المعجزة والكرامة

الأصل فى الكرامة الإخفاء والكتمان ، وكثيراً ما يكون ظهورها فتنة للناس .

وما كان أهلها يظهرون ما لهم كسب فيه منها كالمكاشفة إلا لضرورة ، وقد صرح بهذا محققوا العلماء والصوفية ، فهو متفق عليه بينهم خلافاً للمشهور بين العامة .

قال التاج السبكى فى سياق حجج منكرى جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية(٢) :

الحجة الثانية : قالوا : لو جازت الكرامة لا شتبهت بالمعجزة فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة .

والجواب : منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهى إنما تقترن بكمال اتباع النبي من الولى ، وأيضاً فالمعجزة يجب على صاحبها الإشتهار والكرامة مبناها على الإخفاء ، ولا تظهر إلا على الندرة

---

(١) ابراهيم : ١١

(٢) أى نقلا من كتاب طبقات الشافعية

والخصوص لا على الكثرة والعموم ، وأيضا فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، والكرامة تختص ببعضها ، ثم قال :

الحجة الرابعة : قالوا : لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدى الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الأنبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولى سراً ، فإن من أصول معظم جماعتكم أن الأولياء لا يظهرون الكرامات ، ولا يدعون بها وإنما تظهر سراً وراء ستور ، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ، ويكون ظهورها سراً مستمراً بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد ، فإذا ظهر نبى وتحدى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات ، فلا يتحقق فى حقه خرق العادة ، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد فى حقه ؟ وأيضاً تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد فى حق الأولياء ، وذلك يصدهم عن تصحيح النظر فى المعجزة إذا ظهر نبى فى زمنهم ؟

وقال فى الجواب : لأئمتنا وجهان : الأول منع توالى الكرامات واستمرارها حتى تصير فى حكم العوائد ، وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير به عادة ، فلا يلزم ما ذكروه .

والثانى : وهو لمعظم أئمتنا ـ قالوا : إنه يجوز توالى الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ، ولا يشيع ، ولا يعتاد ، لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات .

وأقول : إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والأصول على

منع توالى الكرامات وتكرارها ، ومنع إظهارها ؛ قال الشيخ محى الدين ابن عربى : إن ما يتكرر لا يكون كرامة ، لأنه يكون عادة ، وإنما الكرامة من خوارق العادات .

وقال الشيخ أحمد الرفاعى : إن الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض ، وصرحوا بأنها ليست بشرط الولاية ولا دليل عليها(١) .

(١) الوحى المحمدى للشيخ رشيد رضا ص ١٥٩ ، ١٦٠

المبحث الخامس

اليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال ركن من أركان الدين الذى بعث الله به الرسل عليهم السلام، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى ويكون باعثا على العمل الصالح، وترك الفواحش، والمنكرات، والبغى، والعدوان، وكان مشركوا العرب ينكرونه أشد الإنكار، ويتمثل هذا الإنكار فى موقف أبى بن خلف حين أخذ عظما باليا، وجعل يفته بيده ويقول: يا محمد أترى الله يحى هذا بعد مارم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم ويبعثك ويدخلك جهنم(١).

واليوم الآخر هو يوم القيامة، وأوله من وقت الحشر إلى مالا يتناهى على الصحيح، وقيل إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وسمى باليوم الآخر لأنه آخر أيام الدنيا بمعنى أنه متصل بآخر أيام الدنيا، لأنه ليس منها حتى يكون آخرها، وسمى بيوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم، وقيامهم بين يدى خالقهم، وقيام الحجة لهم وعليهم(٢).

وفى هذا اليوم مواقف كثيرة نتناول بالدراسة المفصلة بعضها:

---

(١) تفسير النسفى جـ ٤ ص ١٤.

(٢) شرح البيجورى على الجوهرة ص ١٠٦.

البعث

تعريفه : هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية ، وهى التى من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره ، ولو قطعت قبل موته بخلاف التى ليس من شأنها ذلك كالظفر .

حكمته : الحياة الدنيوية — كما هو مشاهد — تجمع بين الحق والباطل ، والعدل والظلم ، والإنصاف والجور ، فإذا لم يكن المغلوب أمل يحى به ، ويعيش عليه فى أنه سينتصر يوما ، وأنه سيأخذ حقه حتما كان ذلك قضاء على وجوده ، وقتلا لحياته ، وهذا ما يأباه المنطق الصحيح والعقل السليم فضلا على الحكم الإلهية .

وإذا لم يكن لذوى الحق والخير ، وأولى الفضيلة والكرم أمل فى أن يحسب لهم هذا ، ويجازون عليه إنعدم الحافز على الخير ، وبطل الدافع إلى المعروف ، وكانت حياة تعسة مرذولة تأباها الحيوانية المحضة فضلا عن الإنسانية الكاملة ، وإذا فلابد من يوم « تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً . . » .

إمكان البعث : جاءت فى القرآن الكريم آيات كثيرة فى الدلالة على إمكان البعث سنختار منها آيتين ، ثم نشرحهما بالتفصيل : ـ

الآية الأولى : قال الله تعالى « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

سبقت هذه الآية آيتان هما قول الله تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين »(١) .

وفى هذه الآيات الثلاث بيان لموقف منكرى البعث ، ثم بيان حكمته ، وإمكان وقوعه .

فقد أدعى هؤلاء المنكرون أن الإنسان ليس إلا هذة البنية المخصوصة ، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه إمتنع عوده بهيئته ، لأن الشيء إذا عدم وفنى ، ولم تبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه لا يعود مرة أخرى لأن الذى يعود يجب أن يكون شيئا مغايراً للأول ، وأشاروا إلى ادعائهم ضرورة ذلك الإنكار بالأقسام واليمين .

وقد رد الحق — سبحانه — عليهم أبلغ رد فقال : « بلى وعدا عليه حقاً » أى يبعثهم بعد الموت ، فإن لفظة بلى إثبات لما بعد النفى ، ثم قال سبحانه « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أنهم يبعثون إما لعدم علمهم بأن البعث من موجبات الحكمة التى جرت عليها عادته سبحانه ، وإما لقصرهم نظرهم على المألوف حيث يشاهدون الميت يمكث مدة طويلة لا تطرأ عليه حياة ، فيتوهمون امتناع البعث .

ثم بين سبحانه الحكمة فى البعث بقوله « ليبين لهم الذى يختلفون فيه »

---

(١) الآيات الثلاث من سورة النحل .

وقد شرحته فيما سبق . وذكر الحق سبحانه إمكانه وأن مألوفهم وما يشاهدونه من عدم طريان الحياة على الميت فى أزمان متطاولة أمر عادى لا يتنافى مع قدرة القادر ، وذلك فى قوله تعالى « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

فالمقصود كما قرر العلماء بيان سهولة خلق الإنسان عليه سبحانه ، وأنه متى أراد الشىء كان ، فمثل الله تعالى تكوينه للمخلوقات بمجرد تعلق إرادته من غير توقف وامتناع بأمر الآمر المطاع إذا أمر المأمور المطيع المسارع فى الامتثال ، فعبر عن سرعة تكوينه على الوجه المذكور بالأمر المستلزم للامتثال ، فإنه تعالى لو أراد خلق الدنيا والآخرة بما فيهما فى قدر لمحة بصر ما عاقه شىء ، والمعنى أن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة ، فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو أهون من الإبداء بالنسبة إلى عقولنا .

الآية الثانية : قول الله تعالى « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى . . »(١) .

فقوله تعالى « فى أنفسهم » إما أن يكون ظرفا للتفكير ، والمعنى أو لم يشغلوا قلوبهم الفارغة عن الفكر بالفكرة الصحيحة ، والتفكر وإن كان محله القلب إلا أنه زيد قوله « فى أنفسهم » لزيادة تصوير حال المتفكرين كما يقال : أبصره بعينه ، وأضمره فى نفسه ، وعلى هذا يكون المتفكر فيه هو قوله تعالى « ما خلق الله السماوات والأرض » على ما هنا عليه من

(١) الروم ٨

النظام المحكم ، والقانون المتقن ، فيعلموا أنه سبحانه لم يخلقهما عبثاً ، ولا جزافاً ، ولكن ليعتبر بهما بالله ، وليستدلوا بهما على وحدانيته سبحانه وكمال قدرته ، وأنه إنما خلقهما لمنافع العباد ، بلاغا لهم فى دار التكليف ، وعونا لهم على اكتساب ما يسعدهم فى دار الجزاء ، وهو معنى قوله سبحانه « بالحق » والباء فيه إما سببية ، أو حالية ، أى ما خلقهما إلا للحق . أو مقرونة به . لا باطلا ولا عبثاً خالياً عن حكمة بالغة ؛ ولا لتبقى خالدة . وإنما خلقها مؤجلة بأجل مسمى بعده يكون البعث ، وفى قوله تعالى : « وما بينهما » ما يفيد أن هناك مخلوقات بين السماء والأرض بها كمال المنافع وتمام النظام .

وإما أن يكون قوله « فى أنفسهم » هو متعلق التفكير وموضوعه ، والمعنى عليه هلا تفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات إليهم ، وهى أعلم بأحوالها حتى يتضح لهم كمال قدرة الله تعالى فإن من تفكر فى تشريح بدن الإنسان . وما أودع فيه من غرائب التدبير الإلهى حصل له العلم القطعى بأن الله تعالى فاعل مختار كامل العلم والقدرة منزه عن الشركاء والأنداد وحصل له كذلك العلم بحقية البعث والجزاء . لأنه إذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال . وأجزاءه مائلة إلى الإنحلال . فيقطع بأنه يفنى عن قريب . فلو لم تكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا النحو عبثاً ، كما أشير إليه فى قوله تعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون »(١).

---

(١) المؤمنون ١١٥ .

وهذا ظاهر لأن من بالغ فى تدبير شىء سيفنى عن قريب بالكلية، وصوره فأحسن تصويره، واعتنى فى إنتظام أحواله أبلغ ما يكون من الاعتناء، مع علمه بأنه يصير عن قريب كأن لم يكن شيئاً مذكورا، لا شك أنه يضحك منه ويتعجب من سفاهته، فمن تفكر فى شأن نفسه على هذا الوجه علم أنه تعالى خلقه للبقاء، ولا بقاء إلا بالحشر، فظهر أن تفكر الإنسان فى أمر نفسه يؤدبه إلى القطع بأن العالم له إله واحد قادر على الإبداء والإعادة، ويكون قوله تعالى « ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » جملة مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها ذكرت بعد إقامة دليل الأنفس استدلالا بدليل الآفاق(١).

---

(١) دراسات قرآنية للمرحوم الدكتور محمد أحمد المسير ص ٩١ ، ٩٢ .

الحساب

هو لغة : العدد ، واصطلاحاً : توقيف الله الناس على أعمالهم خيراً كانت ، أو شراً ، قولا كانت أو فعلا تفصيلا بعد أخذهم كتبها ، ويكون للمؤمن والكافر إنساً وجناً إلا من استثنى منهم .

دليله : قول الله تعالى : « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب»

ومن السنة : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » .

وقوله عليه الصلاة والسلام : يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ، فقيل له : هلا استزدت ربك ؟ فقال: استزدته فزادنى مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً ، فقيل له : هلا استزدت ربك ؟ فقال : استزدته فزادنى ثلاث حثيات بيده الكريمة .

والثلاث حثيات ثلاث دفعات من غير عدد ، فهؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب ، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى من الرحمة فيدخل الجنة من غير حساب ، كان من الكافرين من يكون أدنى إلى الغضب ، فيدخل النار من غير حساب ، فطائفة تدخل الجنة بلا حساب ، وطائفة تدخل النار بلا حساب ، وطائفة توقف للحساب ، فلا تنافى بين النصوص فى مثل ذلك.

حكمته : إظهاره تفاوت المراتب فى الكمال ، وفضائح أهل النقص، ففيه ترغيب فى الحسنات ، وزجر عن السيئات .

وكيفيته مختلفة: فنه اليسير والعسير، والسر والجهر، والتوبيخ، والفضل والعدل .

والسيئة جزاؤها عند الله تعالى مقدر بمثلها إن جازاه عليها ، وله سبحانه أن يعفو عنها إن لم تكن كفراً ، وإلا خلد صاحبها فى النار .

والسيئة هى : مايذم فاعلها شرعاً صغيرة كانت أو كبيرة ، وسميت سيئة لأن فاعلها يهان عند المقابلة عليها يوم القيامة ، والمراد التى عملها العبد حقيقة أو حكما بأن طرحت عليه لظلامة الغير بعد نفاد حسناته ، فإنه يؤخذ من حسنات الظالم ويعطى للمظلوم، فإذا نفدت حسنات الظالم طرح عليه من سيئات المظلوم ، ثم قذف بالظالم فى النار .

والحسنة هى : مايمدح فاعلها شرعاً ، وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها يوم القيامة ، والذى يضاعف منها هو الحسنات المقبولة الأصلية المعمولة للعبد ، أو مافى حكمها بأن عملها عنه غيره ،كما إذا تصدق غيرك عنك بصدقة ، لا المأخوذة فى نظير ظلامة .

فخرج بالمقبولة المردودة بنحو رياء فلا ثواب فيها أصلا ، وبالأصلية الحاصلة بالتضعيف فلا تضاعف ثانياً ، وبالمعمولة أو مافى حكمها الحسنة التى هم بها العبد ، فتكتب واحدة من غير تضعيف ، وكذلك من إذا صمم على المعصية ثم تركها فله حسنة من غير مضاعفة ، وبقولنا : لا المأخوذة فى نظير

ظلامة الحسنة التى يأخذها المظلوم من ظالمه فلا تضاعف .

والتضعيف من خصائص الأمة المحمدية ، وأما غيرها من الأمم فكانت حسنتهم بحسنة واحدة ، وأقل مراتب التضعيف عشرة ، وقد تضاعف إلى سبعين إلى سبعمائة أو أكثر من غير انتهاء إلى حد تقف عنده ، وتفاوت مراتب التضعيف بحسب مايقترن بالحسنة من الإخلاص، وحسن النية(١).

(١) انظر شرح البيجورى على الجوهرة .

الشفاعـــة

هى لغة : الوسيلة والطلب ؛ وعرفا : سؤال الخـــير من الغير للغير ؛ وشفاعة المولى — عز وجل — عبارة عن عفوه ، فإنه تعالى يشفع لمن قال : لا إله إلا الله ، وأثبت الرسالة للرسول الذى أرسل إليه ؛ ولم يعمل خيراً قط ، ليتفضل الله — تعالى — عليه بعدم دخوله النار بلا شفاعة أحد .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقدم فى الشفاعة على غيره من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، فهو الذى يفتح باب الشفاعة لغيره كما قاله ابن العربى .

وفى الصحيحين أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ، أنا أول شافع وأول مشفع .

فظهر لنا أمور ثلاثة :

أولها : كونه عليه الصلاة والسلام شافعاً .

وثانيها : كونه مشفعاً .

وثالثها : كونه مقدماً على غيره ، فإنه حين يشتد الهول ويتمنى الناس

الإنصراف ولو للنار يلهمون أن الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — هم الواسطة بين الله وخلقه ، فيذهبون إلى آدم ، فيقولون له : أنت أبو البشر إشفع لنا ، فيقول ، لست لها لست لها نفسي نفسي لا أسأل اليوم غيرها ، ويعتذر بالأكل من الشجرة ، فيذهبون إلى نوح ويسألونه الشفاعة ، فيعتذر لهم وهكذا ، وبين كل نبي ونبي ألف سنة ، فلما يذهبون إلى سيـــدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — ويسألونه الشفاعة ، فيقول أنا لها أنا لها ، أمتى أمتى ، فيسجد تحت العرش ، فينادى من قبل الله ـ تعالى ـ يا محمد إرفع رأسك واشفع تشفع ، فيرفع رأسه ويشفع فى فصل القضاء ، وحينئذ يفتح باب الشفاعة لغيره ، وهذه هى الشفاعة العظمى ، وهى مختصة به صلى الله عليه وسلم قطعاً ، وهى أول المقام المحمود المذكور فى قوله تعالى : «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » ، أى يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وآخره إستقرار أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار .

وله صلى الله عليه وسلم شفاعات أخرى منها شفاعته فى إدخال قوم الجنة بغير حساب ، ومنها شفاعته فى عدم دخول قوم النار استحقوا دخولها ، ومنها شفاعته فى إخراج الموحدين من النار ، ومنها شفاعته فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها ، ومنها غير ذلك .

ولا تمتنع شفاعته صلى الله عليه وسلم فى أهل الكبائر وغيرهم لا قبل دخولهم النار ولا بعده ، وكذلك لا تمتنع شفاعته عليه الصلاة والسلام فى زيادة الدرجات ، وأما حديث « لا تنال شفاعتى أهل الكبائر من أمتى » فموضوع باتفاق ، وعلى تقدير صحته فهو محمول على من ارتد منهم .

كما أن غير النبي — عليه الصلاة والسلام — ممن ارتضاه الله من الأخيار كالأنبياء والمرسلين. والملائكة: والشهداء، والعلماء العاملين، والأولياء يشفعون فى أرباب الكبائر على مقامهم عند الله — تعالى —، وشفاعة الملائكة على الترتيب، فأولهم فى الشفاعة جبريل - عليه السلام - وآخرهم فيها التسعة عشر التى على النار، ولا يشفع أحد ممن ذكر إلا بعد انتهاء مدة المؤاخذة.

فإن قيل: لافائدة فى الشفاعة حينئذ؟ أجيب بأن فائدتها إظهار مزية الشافع على غيره، على أنه لولا الشفاعة لجاز البقاء فى النار وعدمه بحسب الظاهر لنا، وعلى الجملة فذلك من باب القضاء المعلق، ولأنه يجوز عقــلا وسمعاً غفران غير الكفر من الذنوب بلا شفاعة فبالشفاعة أولى، وأما غفران الكفر فهو وإن جاز عقلا لكنه ممتنع سمعاً لقول الله - تعالى - «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء..».

فعلم أن المراد بالجواز الجواز العقلى والسمعى معاً، ولذلك قيد بغير الكفر، لأن غفران الكفر ممتنع سمعاً وإن جاز عقلا،

والحكمة فى غفران الذنوب دون الكفر أنها لا تنفك عن خوف عقاب، ورجاء عفو ورحمة، بخلاف الكفر، وذلك لأن صاحب الذنوب مسلم يعتقد نقص نفسه فيخاف العقاب، ويرجو العفو والرحمة، بخلاف

صاحب الكفر فإنه يعتقد نقص نفسه فلا يخاف العقاب ، ولا يرجو العفو والرحمة .

وهذا التعليل خاص بالشفاعة فى غفران الذنوب دون الشفاعة فى فصل القضاء فهى تشمل الناس جميعاً .(١)

---

(١) أنظر شرح البيجورى على الجوهرة باب الشفاعة .

المبحث السادس

نماذج تطبيقية لأشهر الدعاة إلى الله تعالى

يعتبر عصر الخلفاء الراشدين أزهى عصور الدعوة الإسلامية بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ذلك أنه كان للدعاة فى هذا العصر من القرآن الكريم والسنة النبوية مدد لا ينفد، ومعين لا ينضب، كما كانت الكلمات التى تصدر من الدعاة صادرة عن شعور حى، وإيمان قوى، ووجدان صادق مخلص، لهذا نفذت إلى القلوب، وكان لها الأثر الكبير فى السلوك العام والخاص.

قال عمر بن عبد القيس: إذا خرجت الكلمة من القلب دخلت القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان.

فلما جاء العصر الأموى كان هناك الكثير من الصحابة الذين تتلمذ على أيديهم التابعون ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ، وظهر من بين هؤلاء التابعين الدعاة المهرة الذين لا يشق لهم غبار كالحسن البصرى، وعمر بن عبدالعزيز، وسعيد بن المسيب وغيرهم.

وسأختار من بين هؤلاء نموذجاً واحداً لدراسة شخصيته، والتعرف على منهجه فى الدعوة إلى الله، ألا وهو:

عمر بن عبد العزيز

نسبه: هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عبد شمس ابن عبد مناف يلتقى نسبه بنسب النبي - صلى الله عليه وسلم - فى الجد الخامس أما أمه فهى أم عاصم بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ثانى الخلفاء الراشدين(١).

ولد عمر فى المدينة المنورة سنة ٦٢ ﻫ على أرجح الأقوال، ونشأ بها فى بيت بنى أمية بين مطارف النعمة ومباذل الجود.

ولما كان عمر فى الرابعة من عمره ولى أبوه على مصر، فلما استقر به المقام أرسل فى طلب زوجته «أم عاصم» فاستشارت عمها «عبد الله بن عمر» رضى الله عنه» وأعلمته بالكتاب الذى أرسله زوجها، فقال لها عبد الله يا بنة أخى هو زوجك فالحقى به ثم قال لها: خلفى هذا الغلام عندنا (يريد عمر) فإنه أشبهكم بنا أهل البيت «فتركته عنده، ولم تخالف أمره، فلما قدمت على زوجها سألها عن ولده فأخبرته بما قال عبد الله بن عمر فسر بذلك عبد العزيز وأرسل إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فأمر عبد الملك أن يجرى عليه كل شهر ألف دينار(٢).

وكانت المدينة المنورة فى ذلك الوقت معهداً للثقافة، ومهبطاً للورع

---

(١) (طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٣٠، وصفة الصفوة ج ٢ ص ٦٣)

(٢) (سيرة عمر بن عبد العزيز لا بن عبد الحكم ص ٢٠).

والدين وملتقى الزهاد والصالحين، ومجمع نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين مثل أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبد الله بن عبد الله ابن عتبة وغيرهم ، كما كان فيها جانب الرفاهية وترف الحياة .

كما كانت المدينة من الناحية السياسية منتدى المعارضة التى كانت تستند إلى كتاب الله وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مقاومة الحكومة الأموية .

فى هذا الخضم المليء بالصلاح والورع والعلم المشوب بالترف والنعيم والقوى بالحجة والمعارضة نشأ عمر بن عبد العزيز ، وتأدب بالآداب العالية والأخلاق الفاضلة ، لحفظ القرآن وهو صغير ولم يتركه أبوه هملا بل عهد به إلى مرب فاضل وعالم تقى « صالح بن كيسان » ، كما أخذ عمر العلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وفوق ذلك فقد كانت المدرسة الأولى له بيت خاله عبد الله بن عمر .

وظل عمر بن عبد العزيز يترقى فى التعليم حتى بلغ درجة عالية جعلته يصل إلى درجة الإجتهاد يرى ويستنبط الأحكام ، ويناظر العلماء حتى شهد له بالعلم الكثير منهم يقول الإمام أحمد بن حنبل : لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز (١) .

وقال الإمام الليث : رأيت سليمان بن يسار خارجاً من عند عمر بن عبد العزيز

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٢ .

فقلت له: من عند عمر خرجت ؟ قال : نعم ، قلت: تعلمونه ؟ قال: نعم، قلت هو والله أعلمكم (١) .

وغير ذلك شهادة كثير من العلماء له ، وهذا يدل على أن عمر وصل إلى درجة عالية من العلم والفقة فى الدين جعلت هؤلاء العلماء يثنون عليه ويقدرونه هذا التقدير، وحبب إلى عمر العلم حتى أصبح يتمنى أن يكون الناس جميعهم بين عالم أو متعلم أو محب لهم ، فهو يقول : إن استطعت فكن عالماً ، فإن لم تستطع فكن متعلما ،فإن لم تستطع فأحبهم ، فإن لم تستطع فلاتبغضهم(٢) .

---

(١) المصدر السابق جـ ٩ ص ١٩٤ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١١٣ :

عمر الداعية

لقد أهلت التربية الإسلامية التى نشأ وشب عليها عمر بن عبد العزيز لأن يكون من أقدر الدعاة وأكفئهم فى تبليغ دعوة الله إلى عباد الله، واستطاع عمر أن ينشر الدين وأن يبصر الناس إلى تعاليمه ، إذ أن غاية العلم التى يبتغيها عمر هى إعلاء كلمة الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإرشاد الناس إلى طريق الحق . والنصيحة لهم بالخير .

كما كان يحث خلفاء بنى أمية على التمسك بأهداب الدين، والرفق بالمسلمين حتى كان يعرض نفسه أحيانا للتهلكة ومواطن الخطر ، وكان مع سليمان ابن عبد الملك بمثابة المشير ، والناصح الأمين، فلزمه يهديه ويبصره ،وسليمان يرد إليه القضايا والمسائل الصعاب فيجد الجواب الشافى عنده . وكذلك قعد لأهل الشام يستفتونه ، وكانت المسألة تثقل عليهم ويعجزون عن حلها فيلجئون إلى عمر فيجدون بغيتهم عنده .

فلما ولى عمر الخلافة جند من نفسه ولسانه وكتبه داعية إلى الله سبحانه لا يفتر عن ذلك مهما شغلته أعباء الخلافة وتكاليفها ، فكانت أول خطبة له عقب توليه الخلافة حث الناس على تقوى الله وطاعته والعمل للآخرة وإصلاح السرائر ، وإذكار الموت ، وحسن الإستعداد له فقال : ـ

« أوصيكم بتقوى الله ،فإن تقواه خلف من كل شىء، وأعملوا لآخرتكم

فإن من عمل لآخرته كفاه الله - عز وجل - أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم وأكثر واذكر الموت ، وأحسنوا الإستعداد له قبل أن ينزل بكم ، (١) .

وكان رضى الله عنه فى نصائحه ومواعظه مؤثراً فى النفوس شاحذاً للهمم والعزائم لأنها صادرة عن نية مخلصة وقلب صادق ، ولذلك سمعت آذان الناس منه صوتاً مؤثراً لم تسمعه من قبل إلا من صوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعض أصحابه ، حتى قراءته للقرآن كانت تثير القلوب والأشجان .

وقد خطب مرة بالقرآن فقرأ « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت حتى انتهى إلى قول الله - تعالى وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، بكى أهل المسجد فارتج المسجد كله بالبكاء ، حتى ظننت حيطان المسجد كأنها تبكى معه ومع الناس (٢) .

وكان يعظ الناس ويذكرهم حتى إذا رآهم قد أخذوا بقوله ، وفتنوا ببلاغته قطع كلامه مخافة أن يطغى رنين الكلام على معناه ، ومخافة المباهاة ، ومع أنه كان شديد التحفظ فى كلامه حتى قيل : ما رؤى رجل أشد تحفظاً فى منطقه من عمر بن عبد العزيز مع ذلك كله يقطع كلامه إذا فتن به الناس وقد خطب ذات مرة فأرق كلامه فأبكى الناس جميعاً يميناً وشمالا ثم قطع

---

(١) صفة الصفوة جـ ٢ ص ٦٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٥٥ .

كلامه والناس ينتظرون أن يكمل ونزل فدنا منه رجاء بن حيوة وقال : ياأمير المؤمنين كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم، ثم قطعت الكلام وهم أحوج ما يكونوا إليه ، فقال : يا رجاء إنى أكره المباهاة (١) .

ولصدق عمر فى قوله حسن آداؤه حتى إنه ليفتن المسافر عن سفره فيقيم ليسمعه ومن أقام ليسمعه المرة تلو المرة ود ألا يرتحل ،وقد سمعه رجل يقال له « عدس بن الفضل » ، وكان ممن يعجبه القول البليغ والأداء الحسن فسمع عمر يوم جمعة وهو يخطب وكان عدس مسافراً فأقام وما زال مقيماً شهراً ما به إلا انتظار الجمعة وانظار الفرصة للسماع إلى كلامه . (٢)

إن عمر بن عبد العزيز يعد مثا لا صادقاً للدعاة إلى الله الذين قلما تجود البشرية بمثلهم حيث اجتمعت لديه من العوامل التى تؤهله لهذه المهمة ماينذر أن تجتمع فى شخص آخر ، وانفرد بخاصية لم تتوفر لأحد بعده وهى خلافة المسلمين ، وبهذه الخاصية رأى أن الفرصة قد واتته ليقوم بنشر الإسلام بكل وسيلة استطاعها ،ففضلا عن خطبه وعظاته فى الأغراض الدينية المختلفة نجد رسائله التى وجهها إلى عماله وولاته على البلاد والتى تجلت فيها قوة إيمانه ، وحماسته فى نشره لدين الله ، والذى يقرأ هذه الرسائل ويتأملها يجد فيها أسلوب الداعية الحكيم والموجه البصير ، والوالد العطوف الناصح لأولاده فى رفق وقوة ، وفى صراحة وحكمة ، جامعاً بين الإدارة والتذكير

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠١ .
(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٩١ .

وبين التبشير والإنذار , كما أن هذه الرسائل التى وجهها إلى عماله وولاته تمثل نفسية الداعى والمرشد والعالم أكثر مما تمثل نفسية الحاكم والأمير ,وقد اكتبت فى أسلوب الدعوة إلى الله والحذر من عقابه وسخطه وفى أسلوب الترغيب والترهيب فأمر فيها ونهى ووعد وتوعد . وحث الناس على التمسك بقواعد الدين والتزام جادة الحق والعدل . وهذه رسالة يبعث بها إلى جميع عماله وولاته يحثهم فيها على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنهم إن غفلوا عن ذلك نزل بهم عذاب من عند الله . أو بأيدى من يشاء من عبـــاده . وأنه إذا ظهرت المحارم بينهم ولم يوجد من يضرب على أيدى الباطل عم العذاب الجميع . أهل الباطل لأعمالهم . وأهل الصـــلاح لسكوتهم وعدم منعهم منه والغلظة عليهم إلخ .

ونص الرسالة ما يلى : أما بعد فإنه لم يظهر المنكر فى قوم قـــط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده ، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنقمات ما قمع فيهم أهل الباطل ، واستخفى فيهم بالمحارم فلا يظهر من أحد جرم إلا انتقموا ممن فعله ، فإذا ظهرت فيهم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصى وعلى المداهنين لهم ، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم ، فإنى لم أسمع من كلام الله تعالى فيما نزل فى كتابه عن مثلة أهلك بها أحداً نجى أحداً من أولئك إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر . . . ثم يقول : ولعمرى إن من الجهاد فى سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله بالأيدى والألسن ، والمجاهدة لهم فيه وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر ، وإنما سبيل الله طاعته ، وقد بلغنى أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إتقاء

التلاوم أن يقال : فلان حسن الخلق ، قليل التكلف ، مقبل على نفسه ، وما يجعل أولئك أحاسنكم أخلاقاً بل أولئك أسوئكم أخلاقاً ، وما أقبل على نفسه من كان كذلك بل أدبر عنها ولا سلم من كلفة لها بل وقع فيها ، إذ رضى لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون فيه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . ثم يقول : فتسلطوا على الفساق من كنتم ومن كانوا فادفعوا بحقكم باطلهم ، وبيصركم عماهم ، فإن الله جعل للأبرار على الفجار سلطانا مبيناً وإن لم يكونوا ولاة ولا أئمة من ضعف عن ذلك باليد أو اللسان فادفعوه إلى إمامه ، فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى قال الله لأهل المعاصى « أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين(١)

والمتأمل فى هذه الرسالة يرى من خلالها فقه الداعية البصير بأمور الدين وشئون الأمة حيث يرسم لمجتمعه الطريق الذى ينجيه من الوقوع تحت طائلة عقاب الله وغضبه ، كما أنها مستمدة من روح القرآن الكريم ومبادئه القويمة المصلحة لكل زمان ومكان .

فقد اشتملت على مبادىء تصلح الأمة باتباعها ، وتنجو من الشرور والآثام وفى ذلك نجاتها من عذاب الله ، وأهم هذه المبادىء ما يلى ،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٢ .

(ا) أن الشرور إذا تفشت فى أمة ولم يوجد من بين أبنائها من يدفعها فإن الأمة لن تأمن من عذاب الله الشامل للصالح والطالح ؛ وقد جاء ذلك فى قول الله ـ عز وجل ـ « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (١)

وما استحق بنوا إسرائيل لعنة الله عليهم إلا لأنهم كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

(ب) أن الغلظة على أهل الباطل والوقوف فى طريقهم لصدهم عما هم فيه من الجهاد ضرورية لأنه قطع ادابر الشر من بين صفوف الأمة مهما كان مبعثه من قريب أو من بعيد ولو من أب أو إبن فلا بد من مقاومته ؛ وذلك نوع من طاعة الله — عز وجل — .

(ج) لو اقتصر كل فرد على إصلاح نفسه ، وتركت الأمة بدون توجيه وإرشاد لغلب الباطل على الحق ، وتغلب أولياء الشيطان على أولياء الرحمن فساموهم سوء العذاب ، وهذا مالا يريده الإسلام لأبنائه بل عليهم أن يكونوا ناصحين مرشدين ؛ ولو لم يكونوا أئمة متخصصين ؛ أو كانت عليهم ذنوب يحتجون بها عن إرشاد الناس وتوجيههم .

قال الأصمعى : بلغنى أن بعض الحكماء كان يقول ؛ إنى لأعظكم وإنى لكثير الذنوب ، ولو أن كل أخ لم يعظ أخاه لترك الأمر بالخير واقتصر على

---

(١) الأنفال : ٢٥ .

الشر ، ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب ، وجلاء النفوس ، وتذكير النسيان .

لقد سما عمر بن عبد العزيز بنفسه وبعماله من عالم الحس إلى عالم المعنى ، وارتفع بهم إلى مستوى روحى يستطيعون من خلاله أن يكونوا دعاة خير وهداية لأقوامهم بفضل مارسم لهم من تعاليم إســـلامية تصلح الفرد والجماعة .

وتتوالى كتبه وتوجيهاته إلى عماله على الأمصار ترسم لهم طريق الإسلام الصحيح التى حادوا عنها فى خلافة سلفه الذين اعتبروا أن الخليفة رأس دولة منظمة لجباية الأموال ، وحراسة الأرواح والنفوس فقط ولا شأن لهم بما عليه الناس من تدين أو أخلاق مادامت هذه الأمور لا تتدخل فى شئون الدولة ، ولا شأن للحاكم أيضاً بنزعاتهم وأفكارهم وعقائدهم وبسعادتهم الدنيوية والأخروية ، وقيمهم الروحية ، فكان رضى الله عنه أول من عنى من خلفاء بنى أمية بناحية تبيين العقيدة الصحيحة للأمة التى هى أول مقاصد البعثة المحمدية ، وأولى واجبات الخلافة الراشدة .

وقد روى عبد الرحمن بن زيد عن أبيه قال : ماطلع علينا كتاب من عند عمر بن عبد العزيز إلا بإحدى ثلاث إحياء سنة ، أو إماتة بدعة ، أو قسم يقسمه بين المسلمين(١) .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨١ .

وعناية عمر بالعبادات الإسلامية والتي من أهمها الصلاة لأنها عماد الدين جعلته يبعث بكتبه إلى أمراء الأجناد يحثهم على إقامة الصلاة فى أوقاتها ثم يبين لهم فضل هذه الأوقات ، وترك الإشتغال بأمور الدنيا عند حضور الوقت وألا يقعدوا عن آدائها فإن فى ذلك تضييعاً لكل شرائع الإسلام . ويحرص عمر على أن تسرى هذه التعاليم فى الأمة مسرى الدم فى الجسد ، فيستحث عماله على أن يكتبوها ويبعثوا بها إلى المدائن والقرى النائية ، ويأمر أهل العلم والفقه أن يتعهدوا الناس ، ويبصرونهم بشرائع الإسلام وهذا نص الرسالة : —

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد أما بعد . فإن عرى الدين وقوام الإسلام الإيمان بالله ، وإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة والمحافظة على أوقات الصلوات فإن وقتها الهجيرة بالظهر ، وصلاة العصر والشمس بيضاء فضية لم يدخلها صفرة ، وصلاة المغرب لفطر الصائم ، ولا تصلين العشاء حتى يذهب شفق الأفق — وهو البياض — فإذا ذهب فصلها فيما بين ثلث الليل ، وما عجلتها بعد ذهاب بياض الأفق فهو أحسن وأصوب ، فإن من تمامها وإصابة وقتها إنتظار ماوصفت لك فى كتابى هذا منها ، ثم صل صلاة الفجر بغلس ، وحافظ على ذلك فإن المحافظ عليها حق واصبر نفسك على ذلك ، واجتنب الأشغال عند حضور الصلوات ، واكتب ذلك إلى عمالك بالمدائن والقرى ، وحيثما كانوا فإن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً

موقوتاً ، و « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » وإن من يضيع الصلاة فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعاً ، ثم أكثر تعاهد شرائع الإسلام ، ومن أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ماعلمهم الله من ذلك ، وليتحدثوا به فى مساجدهم والسلام عليك »(١) .

ما كان عمر يفتر ساعة من نهار عن توضيح سنن الإسلام وشرائعه ، وشحذ الهمم على إحيائها ونشرها، ويقول لعماله : أكتبوا هذه التعاليم وابعثوا بها إلى المدائن والقرى حتى لايكون لأحد عذر فى المخالفة .

والواجب الحتمى على علماء الأمة وفقهائها أن ينشروا الدين والعلم، وأن يجعلوا من مساجد الله مصادر إشعاع تهدى الناس إلى طريق الخير ففى ذلك إحياء لدين الله ، وتقوية له فى نفوس معتنقيه ، وشرح صدورهم للعمل به .

وقد بلغ من حرص عمر ـ رضى الله عنه ـ على سلامة العقيدة والمحافظة عليها من الإختلاف أنه تمنى أن يطول به العمر حتى يوضح للمسلمين فرائض الإيمان وشرائعه وسننه وحدوده التى لايستغنى مؤمن عن معرفتها، فقد كتب إلى عامل له يسمى ـ عدى بن عدى ـ إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٦٧ .

أعش فسأبينها لكم حتى تعلموا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص (١) .

وهكذا توالت خطبه ومواعظه للأمة ، وكتبه ونصائحه إلى عماله وكلها مفعمة بالإرشادات التى تبين للناس طريق الكتاب والسنة حتى يسيروا على هدى الدين فكان نموذجاً حياً ، وداعية مثالياً ينبغى للدعاة أن يسيروا على نهجه حتى تسعد بهم أمتهم كما سعدت به .

والله أعلم . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ؟

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٣٦ باب قول النبى صلى الله عليه وسلم بنى الإسلام على خمس .

أهم المراجع

١ — القرآن الكريم

(أ) التفسير

٢ — تفسير القرآن العظيم لابى الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى .
دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان

٣ — فتح القدير
الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير . محمد بن على بن محمد الشوكانى .
دار الفكر — للطباعة والنشر والتوزيع .

٤ — تفسير النسفى عبد الله بن احمد بن محمود النسفى .
دار احياء الكتب العربية .

٥ — تفسير المنار السيد محمد رشيد رضا .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(ب) الحديث والسير

٦ — صحيح الامام البخارى

٧ — صحيح مسلم بشرح النووى دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٨ — فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى .
دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان .

٩ — (أ) مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري .
(ب) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي
(جـ) تهذيب الامام ابن قيم الجوزية في كتاب واحد . تحقيق محمد حامد الفقي .
مكتبة السنة المحمدية ، عابدين — القاهرة.

١٠ — الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار صلى الله عليه وسلم الامام النووي .
دار الكتاب العربي ، بيروت — لبنان .

١١ — سبل السلام للامام الصنعاني
مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

١٢ — نيل الأوطار محمد بن علي بن محمد الشوكاني .
مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

١٣ — زاد المعاد في هدى خير العباد ابن قيم الجوزية المطبعة المصرية .

١٤ — الطبقات الكبرى محمد بن سعد .
دار بيروت للطباعة والنشر .

١٥ — صفة الصفوة جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي .
حيدر اباد ١٣٥٥ هـ .

١٦ — تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون ، دار الفكر .

١٧ — سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، مصر ١٣٣١ هـ .

١٨ — تاريخ الأمم الاسلامية الشيخ محمد الخضري بك .
المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

١٩ — السيرة النبوية أبو الحسين علي الحسني الندوي ط ٣ .

٢٠ — الرحيق المختوم دار الشروق
بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الشيخ صفي الرحمن المباركفوري .
مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر جدة.

(ج) العقيدة

٢١– شرح البيجورى على الجوهرة شيخ الاسلام / ابراهيم البيجورى . دار ومطابع الشعب .

٢٢– رسالة التوحيد الشيخ/ محمد عبده ، مطبعة محمد على صبيح واولاده ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٦م .

٢٣– الوحى المحمدى السيد محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة .

٢٤– ابراهيم أبو الأنبياء عباس محمود العقاد مؤسسة دار الهلال .

(د) الدعوة

٢٥ هداية المرشدين الشيخ / على محفوظ مطابع شركة الاتحاد للتجارة والطباعة والنشر

٢٦– دعوة الرسل الى الله تعالى محمد احمد العدوى ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

٢٧– محاضرات فى علم الخطابة الشيخ ابراهيم الدسوقى املاها على طلابه فى قسم الدعوة بكلية اصول الدين سنة ١٩٧١ م .

(هـ) الأدب

٢٨– البيان والتبيين ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام هارون . الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٦٨م .

٢٩– جمهرة خطب العرب احمد زكى صفوت ط ٣ . مطبعة مصطفى البابى الحلبى .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

المبحث الثانى

المبحث الثالث

المبحث الرابع

المبحث الخامس

المبحث السادس